نغمة نيرَاف

© حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: نغمة نيرَاف
تأليف: زينب إبراهيم ناصر
مراجعة لغوية: رنا أبوالغيط
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح القـطـــــع: 21X14
النـاشـــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع سنـة النشـر: 2025

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 16578 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 643 - 2

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ 49351

ت: 01066736765 - 01015766014 / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-643-2

نغمة نيرَاف

رواية

زينب إبراهيم ناصر

إيلانور

في إحدى القرى الصغيرة على حافة الصحراء الكبرى، كان الناس يتحدثون همسًا عن مملكة لا تظهر إلا في الليالي الخالية من القمر. يسمونها "إيلانور"، لكن لا أحد يملك دليلًا على وجودها، فقط حكايات قديمة، وخرائط نصف محترقة، وكلمات غامضة نُقشت على جدران آبار مهجورة.

في ذلك الوقت، كان يُذكر أن لتلك المملكة حارسًا، لم يكن أحد يعرف من هي... ولكن عُرف اسمها "أريتا". بعضهم قال إنها كانت أميرة رفضت الحكم، وبعضهم ادّعى أنها مجرد ظل لامرأة أحبّت فخذلتها الحياة، لكن الحقيقة كانت أبعد من كل ذلك.

"أريتا" لم تكن من هذا العالم، ولا خارجه تمامًا، كانت شيئًا بين الاثنين، بين الحلم والواقع. عاشت في مكتبة داخلية منسية داخل أسوار إيلانور، تقرأ الكتب التي لا يستطيع غيرها لمسها.

لم تكن تخرج كثيرًا، لكن عندما تفعل، كانت الرياح تهدأ، والسماء تفتح لونًا جديدًا لم يُر من قبل.

في ليلة اختفى فيها القمر فجأة، لم يستطع أحد أن ينام. خاف الناس، بعضهم جمع أمتعته ورحل دون أن يعرف وجهته، وآخرون ظلوا ينظرون نحو السماء وكأنهم ينتظرون تفسيرًا.

في اليوم التالي، كانت إيلانور خالية، جدرانها لا تزال واقفة، أبوابها مغلقة، لكن لا أثر لأحد. كل من اقترب من بوابتها شعر بشيء غريب، وكأن الذاكرة تهرب، وكأن القلب يتباطأ في دقاته، وكأنك على وشك أن تتذكر شيئًا... ثم تنساه في اللحظة نفسها.

"أريتا" ظهرت عند البوابة، بثوب بسيط، وشعر يتطاير رغم السكون. نظرت طويلًا إلى الصحراء، ثم إلى المفتاح في يدها، لم يكن من ذهب ولا من حديد، بل من مادة لا تشبه شيئًا في هذا العالم. رفعت يدها، وضغطت المفتاح في الهواء، فاختفت البوابة، لم تُفتح... بل اختفت.

ثم همست وكأنها تحدّث من سيأتي بعد مئة عام:

"من يبحث عن الحقيقة وفي قلبه يقين، لن يجدها، ومن ضلّ عن نفسه، هو وحده القادر على أن يسمع نداءنا."

ومنذ ذلك الحين، لم تُفتح إيلانور، لكن بعض التائهين في الصحراء، أولئك الذين ضلوا تمامًا، قالوا إنهم رأوا امرأة تمشي فوق الرمل، بلا أثر، وأنها عندما تبتسم، يسمعون صوتًا لا يشبه أي شيء عرفوه من قبل.

نيراف

مرّت أعوام أو قرون أو لحظات... لا أحد يعلم كم مضى على اختفاء إيلانور، لأن الوقت لم يعد يعني شيئًا بعد تلك الليلة.

في الجهة الأخرى من الصحراء، وُلد فتى أُطلق عليه "نيراف"، كان مختلفًا منذ صغره، لا يحب التجمعات، ولا يألف القصص التي يرويها الشيوخ في ليالي البرد. كان يحدّق في الأفق أكثر مما يحدّق في الوجوه، وكأن هناك شيئًا ما يناديه من بعيد، من مكان لا يعرف له اسمًا.

عمل كمرشد للغرباء الذين يعبرون الصحراء، لكنه لم يكن يرافقهم بحثًا عن المال أو المجد، بل كان يبحث معهم... عن شيء لا يعرفه، لكنه يشعر أنه هناك.

كان يشعر بالضيق كلما اقترب من أي مدينة، والراحة كلما ابتعد، وكأن الرمال تعرفه، وكأن النجوم تتذكره.

في أحد الأيام، وبينما كان يسير وحده بعد أن افترق عن قافلة ضلّت الطريق، ظهرت له العلامة، تلك التي سمع عنها في الأساطير: قطرة ندى على حجر، في قلب صحراء جافة.

اقترب، فسمع الهمسة... لم تكن صوتًا، بل إحساسًا، يشبه ما قبل البكاء بلحظة.

"ما زال هناك طريق... لكنه لا يُسمّى طريقًا إلا بعد أن تمشيه."

نظر نيراف حوله، لم يكن هناك أحد. لمح من بعيد شيئًا يتحرك فوق الرمال، لا جمل، لا إنسان... بل ظل يمشي بلا أثر، ويترك في الهواء رائحة حنين.

بداية النداء

لم يكن يعلم أنه نام، فهو كان ينصت لما سمع. فآخر ما يتذكره هو خطواته المتثاقلة فوق الرمل الساخن، وأنه توقف لثوانٍ فقط ليستريح.

لكنه حين فتح عينيه، لم يكن في الصحراء، كان يقف أمام بوابة ضخمة، لا تُشبه شيئًا رآه من قبل. لم تكن مبنية من حجر أو خشب، بل من مادة رمادية ناعمة، كأن الضباب تجمّد على هيئة باب.

لا جدران حولها، ولا مدينة خلفها، فقط بوابة قائمة وحدها في الفراغ، متربعة على أرض صلبة لا نهاية لها، تحت سماء لا لون لها.

"اقترب."

كلما خطا خطوة، سمع صوته، ليس صوته المعتاد... بل الصوت الذي يسمعه الإنسان حين يفكر بصمت، في اللحظة التي تسبق اتخاذ القرار.

"أنت في البوابة الأولى."

لم يعرف من قالها.. لم يكن هناك أحد... لكن الكلمات سكنت رأسه كما لو وُلدت فيه. رفع يده ليلمس الباب، لم يكن باردًا، ولا دافئًا،

لا يوصف. فجأة، ظهر شيء عليه، نقش يتشكل ببطء، كأن أحدًا يكتبه الآن..... كانت كلمة واحدة:

"الحنين."

شعر بشيء يتحرك خلفه، التفت، لا شيء. لكنه حين نظر أمامه ثانية، كان الباب مفتوحًا.

لم يصدر صوت، لم يكن هناك أي ضوء أو ظلام من الداخل، فقط فراغ... يدعوه. تردد للحظة، ثم خطا.

الحنين

حين خطا نيراف داخل البوابة، لم يشعر بشيء، لا انتقال، لا دوار، لا ضوء، فقط خطوة... ثم أرض جديدة تحت قدميه. كانت غابة.

لكنها ليست كأي غابة رآها، الأشجار متقاربة بشكل خانق، أوراقها لا تتحرك رغم أن النسيم موجود، رائحتها لا تُشبه الطبيعة، بل تشبه... البيت.

ذلك النوع من الروائح الذي لا يمكنك وصفه، لكنه يعيدك إلى مكان تحبه دون أن تدري لماذا.

سار نيراف ببطء، الأرض لينة تحت قدميه، كل شيء صامت... لا طيور، لا حشرات، لا أصوات، لكن هناك شيء آخر كان حاضرًا بقوة: الذكريات.

كل شجرة مرّ بجانبها، أعادت إليه شيئًا نسيه.. في البداية، كانت أشياء صغيرة: نداء أمه في طفولته، ضوء الشمس على وجه والده، ضحكة صدرت منه ذات مساء ولم يفهم سببها وقتها. ثم بدأت الذكريات تشتد.

رأى نفسه جالسًا على ربوة صغيرة قرب مضارب قبيلته، ينظر إلى نجمة واحدة في السماء ويتمنى أن يختفي كل شيء.

رأى الفتاة التي أحبها صامتة، وظهرها له، بينما اختار ألا يناديها... رأى خيمته بعد أن هجرها، مليئة بالغبار.

الغريب أنه لم يرَ هذه الذكريات فقط... بل شعر بها من جديد، كأن الماضي لم يمر، بل ما زال يدور، وها هو يُسحب إليه بالقوة.

ثم، عند شجرة ضخمة في منتصف الغابة، رأى نفسه واقفًا أمامه.

"نيراف"... الآخر!

لكن لم يكن هذا مجرد انعكاس، كان نسخة منه، أصغر قليلًا، تحمل في عينيها دهشة وخوفًا دفنهما منذ زمن.

قالت النسخة الأخرى، دون أن يحرّك شفتيه:

"أردت أن ترحل، فهل وجدت ما كنت تهرب منه؟"

لم يعرف نيراف ماذا يجيب.... اقترب من النسخة الأخرى، لكن تلك اختفت... واختفى معها الضوء، والأشجار، والرائحة. وعاد يقف أمام بوابة جديدة، هذه المرة لم تكن رمادية، كانت بلون التراب، وعليها نقش جديد:

"الاختيار."

الاختيار

لم يكن هناك وقت للتفكير، ما إن لمح نيراف البوابة الجديدة حتى انفتح الباب تلقائيًا، وابتلعه الضوء.

هذه المرة، لم تكن هناك غابة، بل غرفة حجرية، مربعة الشكل، جدرانها من صخر أملس، بلون العظام القديمة. في وسط الغرفة، ثلاثة ممرات، كل ممر مظلم من أوله لآخره، لا ضوء، لا علامة، لا صوت.

على الجدار خلفه، ظهرت كتابة:

"اختر... ولن يُعاد الاختيار."

اقترب من أول ممر، فشعر بدفء غريب على وجهه. الممر الثاني، رائحة عطر يعرفه، لكنه لا يستطيع تذكر متى شمه.

الممر الثالث، سكون مطلق... كأن الصوت نفسه ميت هناك. حاول أن يستمع لصوت داخله، لكن بداخله صمت أقوى من أي فكرة.

مرّت لحظات لم يتحرك فيها، شعر أن الزمن نفسه ينتظره ليتخذ القرار. فجأة، سمع خطوات... خلفه.

استدار، رأى فتاة .."أريتا"، لأول مرة كانت تقف على بُعد، بثوب رملي اللون، وشعر داكن مربوط للأعلى، عيناها لا تحذّران ولا تطمئنان، فقط تراقبان.

قالت بهدوء:

"هذه ليست ممرات... بل قراراتك القديمة، كل واحد منها سيأخذك إلى ما اخترته، وليس إلى ما تريد."

تجمد "نيراف" وقال: "لكنني لا أتذكر ماذا اخترت."

ابتسمت ابتسامة صغيرة، بالكاد مرئية....

"لهذا أنت هنا." ثم اختفت، وتركته وحده لا يعرف من هي...

ثلاثة ممرات أمامه، فهنا قرر أن لا يختار بعينيه، بل بشيء أعمق. أغمض عينيه، وسار في الممر الثاني، كما اختار قلبه وحدسه الداخلي.

الهواء فيه ثقيل... وكلما تقدّم، ظهرت له مشاهد من حياته، لكن ليس كما يتذكرها. رأى نفسه يتخذ قرارات بديلة، في أحدها، لم يغادر قبيلته أبدًا، وفي أخرى، اختار أن يعترف بحبه... وتزوجها، لكن ماتت بعد عام.

رأى مئات النهايات... كلها كانت نتيجة خيارات لم يتخذها.

ثم توقّف... كان يقف أمام مرآة لا تعكس شكله، بل تعكس رجلًا أكبر سنًا، منهكًا، يحمل عينيه لكنه ليس هو.

ثم تحطّمت المرآة وحدها، وظهر وراءها باب ثالث، من حجر أسود، عليه كلمة: "الصدق."

الصدق

ما إن عبر الباب الحجري حتى شعر أن الهواء تغير، لم تكن أنفاسه فقط... بل أحس أن الهواء نفسه يراقبه.

الجدران هنا لم تكن صخرية ولا طبيعية، بل مصقولة كالزجاج الأسود، لا يعكس صورته، بل يفتح بابًا لرؤية شيء آخر. مشاهد خاطفة، لحظات مبعثرة، أغلبها لا يعرفها، لكن واحدة منها أوقفته فجأة، وهو يقول كلمات مطمئنة... بينما يعرف أنه يخفي عنه شيئًا.

لم تكن كذبة صريحة، فقط "نصف الحقيقة"، لكن المرآة لم تتسامح معها. كلما مشى، ازدادت الصور قسوة.

أحيانًا، كانت تظهر وجوه لا يعرفها.... رجال، نساء، أطفال... ينظرون إليه من خلف الزجاج وكأنهم يعرفونه، وكأنهم يتهمونه. ثم فجأة، انكسر الصمت.

همس..... قريب جدًا... لكن لا أحد ظاهرًا. استدار بسرعة، لا شيء.

لكنه لمح ظلًا يتحرك على الزجاج، ليس ظله.

جسد طويل، نحيل، مشوّه الملامح، يمرّ ببطء من جدار إلى آخر، كأنه محبوس خلف الجدار... أو يحاول الخروج.

صوت أنين بدأ يعلو من حوله، لم يكن بشريًا تمامًا... لكنه مفهوم.

"كذبنا حين قلنا إننا أقوياء... وخفنا أن نقول إننا نريد البقاء."

صوت بلا صاحب... ثم على أحد الجدران، ظهرت كلمة بحروف نارية: "واجه."

في لحظة، سقطت الأرض من تحته، وجد نفسه في غرفة دائرية، فيها ثمانية أبواب. لكنه لم يكن وحده.

في زاوية الغرفة، يجلس رجل، ملامحه باهتة، يرتدي عباءة ممزقة، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، لكن لا تُركزان على شيء.

اقترب نيراف منه.... قال الرجل بصوت جاف:

"البوابة الرابعة لم تُفتح لي... لم أتحمّل الصدق. بقيت هنا."

ثم التفت إليه مباشرة... كأن نظره عاد للحياة للحظة:

"هل قلت كل الحقيقة من قبل؟ لنفسك؟"

صمت "نيراف"، لم يعرف الجواب..... وبينما كان ينظر إلى أحد الأبواب الثمانية، بدأ واحدًا منها يتوهّج باللون الأزرق، وعليه كلمة جديدة: "الخوف."

الخوف

لم يكن الضوء الأزرق مطمئنًا، حين اقترب من الباب المتوهج، شعر بحرارة عكسية، برودة تشبه الجليد، لكن تلسعه كالنار.

رفع يده ولمس الكلمة المكتوبة: "الخوف".

الباب لم يُفتح... بل ابتلعه.

سقط نيراف في ظلام كامل، ثم فجأة وجد نفسه في مكان مألوف... الصحراء. لكنها لم تكن كما عرفها، النجوم غابت، والقمر محجوب، والرمال تتحرك كأنها تتنفس، وفي الأفق... مخيم "حيدان"، قبيلته التي طالما عاش بها وانتمى إليها. أصوات ضحك، ونار مشتعلة.

تقدّم بخطوات سريعة... ثم بدأ يسمع.... صوت والده.

ثم صوته هو صغيرًا يسأل: "أبي، لما نعود لتلك البقعة مرة أخرى وكأننا في دائرة لا تنتهي؟"

ويجيبه والده:

"لأننا لم نعرف كيف نواجه الطريق الآخر يا بني."

ثم اختفى المشهد من جديد، فظهر مشهد آخر....

فتاة لم تكتمل صورتها، ملامحها ضبابية، لكنها كانت تنظر إليه كمن ينتظر شيئًا.

"كنت تملك القدرة على قول الحقيقة... لماذا لم تفعل؟"

ظهر صوت جديد خلفه:

"هل فكّرت لماذا أنت هنا؟ ولِمَ أنت تحديدًا؟"

التفت، لكنه رأى شيئًا آخر غير ما توقعه، كانت تلك الفتاة مرة أخرى "أريتا"، لكنها لم تكن كما رآها من قبل.

وجهها صار أقرب للظل، عيناها لا تُظهران الطمأنينة، بل تحديًا صامتًا.

"أنا لست نورًا ولا ظلًا... أنا مجرد حارسة وأُدعى أريتا."

"وما أحرسه داخل إيلانور ليس الحقيقة... بل الاختبار."

اقترب منها "نيراف" ليحدثها:

"إلى أين تقودينني؟ لنجاتي؟ أم لهلاكي؟"

ابتسمت ابتسامة غريبة، وقالت:

"ومن قال إن أحدًا نجا من إيلانور؟"

ثم أشارت إلى الأفق، حيث بدأت تظهر أشكال بشرية تتحرك بين الرمال.... أجساد تمشي بلا وجوه.

ثم تحدثت قائلة وهي تشير بيدها لتلك البوابة:

"الذين لم يعرفوا كيف يواجهون خوفهم... بقوا هنا، عالقين في الخوف نفسه... إلى الأبد."

"نيراف" أغلق عينيه، سأل نفسه بصوت داخلي:

"قدمت إلى هنا ليس رغبةً مني، ولكني هنا لكي أنسى؟ ليس لأجد؟ وما ينتظرني إذا أكملت رحلتي هنا؟"

ثم... فتح عينيه، لكن لم يكن يقف أمام باب جديد كما توقّع...

بل وجد نفسه في غرفة دائرية، أرضها من زجاج داكن يعكس ما تحته، والجدران مغطاة بخيوط رملية تتحرك ببطء كأنها تنسج شيئًا غير مرئي. وفي منتصف الغرفة، أربعة أبواب... كل باب يحمل أثرًا مما تركه خلفه.

باب "الحنين" ينبعث منه صوت ضحكة طفل.

باب "الاختيار" يظهر عليه انعكاس صورته القديمة.

باب "الصدق" مشقوق، يقطر منه سائل شفاف كالدّمع.

باب "الخوف" مُغلق بإحكام، لكن وراءه خيال يتحرك بلا ملامح.

كل باب منفتح من جهة... ومغلق من جهة أخرى. ثم... ظهر باب خامس، ليس بجانبهم، بل فوقهم هناك في السقف، دون سلم، دون مسار، لا كلمة عليه، فقط نقشٌ دائري يشبه البوصلة، تتجه كل رؤوسه إلى واحد من الأبواب السابقة.

الرمل

صوت داخلي مجهول يهمس:

"أين تذهب حين لا يبقى باب مفتوح؟"

ارتفعت الرمال فجأة من الزجاج الأرضي، تجمّعت على شكل كائنات بلا ملامح... تمشي نحوه ببطء، لكنها لا تترك ظلالًا.

كانوا... يشبهونه. واحدًا منهم همس:

"نحن من لم نكمل الطريق. نحن الذين اختاروا الباب الخطأ... أو تأخروا في الاختيار."

"إيلانور لا تمهل الجميع... من يتردد، يُمحى أثره."

ارتجّ المكان، وأصدرت البوصلة فوقه صوتًا خافتًا، ثم... سقط من أعلى حبلٌ من ضوء الرمل.

لم يكن هناك سؤال هذه المرة، فقط إحساس:

"إذا لم يصعد الآن... ستتحوّل إلى واحد منهم."

تسلق نيراف الحبل، ومع كل خطوة عليه، انبثقت من جسده ومضات من المواقف الأربعة السابقة، كأن الرمل يُعيد نسج تاريخه.

وعندما وصل إلى أعلى... لم يكن هناك أرض، بل فضاء مفتوح، وفي منتصفه... امرأة ترتدي عباءة من ضوء وسواد، ليست "أريتا"، فهي من رآها هنا من قبل ولا يعرف غيرها للآن، لكنها تحمل ملامحها.

قالت: "مرحبًا بك في نقطة التكوين. لم تعبر الأبواب... بل الأبواب عبرتك."

النغمة

فحين خرج نيراف من الحبل الرملي، لم يسقط على أرض، بل سقط في ماء ساكن تمامًا، لا موج فيه، لا عمق، ثم لاحظ أن جسده لا يُبلّل.

كأنه يقف داخل مرآة، لكن لا تعكس صورته... بل تعكس طفلًا يشبهه، يركض وسط صحراء حمراء، ويضحك.

ظهر صوتها، نفس المرأة صاحبة العباءة، لكن هذه المرة، تحمل في يدها عودًا قديمًا من عظام، لا من الخشب.

"تعال يا نيراف، سأحكي لك حكاية المملكة..."

"منذ آلاف السنين، لم تكن إيلانور مملكة... بل نغمة خُلقت حين اجتمعت أول دمعة، وأول ضحكة، وأول خيانة في قلب إنسان واحد. تلك النغمة لم تكن تُعزف، بل كانت تُشعَر. وحين شعر بها أول إنسان، انقسم نصفه الأول إلى أريتا... والنصف الثاني إلى ظل لا اسم له. أريتا كانت الصوت... والظل كان الصدى. وبالزمن، بُنيت المملكة لتحمي النغمة من الانكسار."

ثم أخرجت من العود شعاعًا صغيرًا... فتحوّلت الأرض حول نيراف إلى مشاهد متداخلة، طفل فقد أهله، رجل وقف أمام بحر لا قرار له، امرأة تحمل قلبها في يدها وتبحث عن مكان تدفنه فيه.

"كل زائر للمملكة... يحمل نغمة ناقصة، حتى أنت يا نيراف... جئت تبحث عن اللحن الكامل. لكن ما لم تعرفه... أن النغمة لا تُكتشف إلا إذا أكملت الدائرة."

ثم أخرجت المرآة الأولى التي دخل منها، وكانت مكسورة، قالت:

"كل باب عبرته... أصلح شرخًا فيها. أربعة شروخ التئمت.

لكن الشرخ الخامس... لا يُصلح إلا إذا اخترت أن تكون أنت النغمة، أن تضيع لتصبح المعزوفة... لا العازف."

اختفت المرأة، ووجد نيراف نفسه أمام البوابة السادسة، لكن هذه المرة... لم تكن بوابة، بل عود معلّق في الهواء، وعليه وتر واحد فقط، إما يعزفه... أو ينسى كل ما مرّ به.

صدى الملك

لم يكن عزفًا... بل ارتجاف خفيّ في الهواء، حين لمس "نيراف" الوتر المشدود، لم يُصدر لحنًا، بل همسة كأنها تخرج من باطن الأرض.

ثم الظلام، ومع الظلام... إحساس ثقيل بأنه ليس وحده.

فتح عينيه على قاعة عرش مدمّرة، الهواء ساكن، والرمل يغطي الأرض، الأعمدة مائلة، والضوء يتسلل من ثقوب عالية، كأنه ضوء حلم لا شمس له.

وعلى العرش... جلس رجل لا وجه له.

الرجل: "أخيرًا، قررت أن تسأل."

نيراف: "من أنت؟"

الرجل (بهدوء): "أنا صدى النغمة الأولى... تلك التي نسيتها الحارسة أريتا."

نيراف (يتقدّم خطوة): "أريتا لم تنس شيئًا... هي حارسة والحارسة تعرف مهامها جيدًا."

الرجل: "حارسة؟ أم سجّانة؟ هي مَن أغلقت الأبواب... وأنا مَن كنت قبل أن تُخلق هنا."

صمت، ثم أشار إلى الجدران. ظهرت صور مشوشة، وجوه، خطوات، نيران، "نيراف" صغير، ثم كبير، ثم مكسور.

الرجل: "هل ترى نفسك هنا... لم تكن أول مرة لقدومك يا "نيراف"، هذه دائرة... وأنت دائمًا تبدأ من البوابة الأولى."

نيراف: "كذب... لم آتِ هنا من قبل طوال عمري."

الرجل (بنبرة غريبة): "وهل يوجد هنا ما يعرف بالعمر؟ هذه مملكة النسيان والانعكاسات. فأنت انعكاس لشيء أعمق... شيء قرّر أن ينسى لكي ينجو."

ثم سُمعت همسة... صوت "أريتا"، همسة ضعيفة من بعيد، كأنها تحاول اختراق الظلام.

أريتا: "لا تصدقه... هذا فخ."

الرجل: "مش فخ. مجرد سؤال:

لما تنهار المملكة... من يقف في المنتصف؟ الحارس؟ أم الملك الذي تخلى؟"

نيراف (مضطرب): "أنا... لستُ الملك."

الرجل (يبتسم للمرة الأولى): "لا، لكن أنت من اختار أن يبقى غريبًا لكي لا يتحمل أخطاء ما حدث. لكن تلك النغمة عادت تدق، وهذا معناه أنه حان وقت القرار."

نيراف (يمسك رأسه): "كفاية... لم أعد أفهم شيئًا."

الرجل (يهمس): "لم يعد هناك وقت لكي تفهم... لابد أن تتذكّر."

القاعة بدأت تتفكك، الجدران تذوب في الرمال، الرمال تتحول إلى بحيرة من الزجاج، وعلى سطح الزجاج... ظهرت بوابة جديدة.

لكنها لا تحمل رقمًا، بل اسمًا: "نيراف."

أريتا (بوضوح أكثر): "إذا خطت قدماك هناك سوف تصبح مثلهم، كائن من ظل يظن أنه الحقيقة."

الرجل: "ولو لم تدخل، سوف تظل في متاهة تتكرر كل مرة من البداية... بوابات، أسئلة، ندم، ثم نسيان... فاختر."

"نيراف" واقفًا أمام بوابة باسمه، وراءه صوتان... "أريتا" التي تحذّره، والرجل الذي يعِده بالحقيقة الكاملة، ولأول مرة يدرك أن كل بوابة مرّ بها ربما لم تكن لاختباره... بل لإيقاظه.

لا يعرف ماذا يفعل، ولكنه ينصت، فبرأسه متاهة أخرى، وضبابية تفكيره مشوشة. وضع نيراف يداه على أذنيه وأغلق عينيه، لعل ما يحدث ينتهي.

البوابة التي لا تُسمّى

لم تكن هناك أرض ولا سماء، ولا حتى ضوء، فقط مساحة رمادية، كأن العالم قد نُسي، وبقيت فكرته فقط.

فتح عينه ليجد "نيراف" نفسه واقفًا وسط العدم، لكنه لم يكن خائفًا، بل... كأنه يعرف هذا المكان من قبل.

صوت (من داخله): "هنا لا تُسأل الأسئلة... بل تُعاد عليك."

ظهر أمامه جدار، لا ملامح له، لكنه بدأ يعرض صورًا لكل بوابة دخلها، كل خطوة ظنّها قرار، كل تردد خبّأه خلف الهدوء. ثم ظهرت نسخة منه، شاب مثله، لكن أكثر تعبًا... عيونه خاوية.

النسخة: "أنا أنت... لكنني اخترت الاستسلام."

نيراف (بهمس): "ليه؟"

النسخة (يضحك): "لأن الإجابات أسهل حين نبتعد عن السؤال."

صوت آخر، أنثوي، خرج من خلف الجدار:

"وإنت؟ ماذا قررت؟ ماذا اخترت؟ هل تكمل؟ أم تستسلم؟"

التفت، فظهرت "أريتا"... لكنها مكسورة، وجهها ليس كما يتذكره، شعرها مشعث، صوتها خافت:

أريتا (تقترب): "أنا مرآتك التي لم ترها، أنا الحنين الذي أصابك الخوف منه، فاخترت المملكة بدل العالم."

نيراف: "لكن المملكة تمتلك الضوء... وفيها نغمة."

أريتا: "لا. المملكة أنت من فيها، وإنت من يراها هكذا."

الفراغ يبدأ يهتز، أصوات كثيرة تتردد:

"نيراف، لم يكن هذا وقتك!"

"ارجع!"

"إذا تعمقت أكتر، لن تعود!"

نظر حوله، والفراغ يتحول إلى متاهة من المرايا، كل مرآة فيها انعكاس مختلف:

نيراف الملك.

نيراف الطفل.

نيراف الذي خان.

نيراف الذي أنقذ.

ثم توقّف عند مرآة واحدة... لكنها كانت سوداء، لم يظهر فيها شيء.

نيراف (يهمس): "هل أنا هنا...؟"

مد يده... ليلمسها، لكن في تلك اللحظة، المرآة تفتحت، ليست كشاشة عرض، بل كبوابة، ورأى عبرها شخصًا غريبًا، واقفًا في صحراء بعيدة، ينظر للسماء كأنه يبحث عن شيء.

شخص ما... من العالم الخارجي.

صوت خافت:

"هل هناك من سوف يأتي؟... وهل تبقّى وقت؟."

"نيراف" تراجع خطوة، هو الآن لا يواجه اختيارًا بين ماضٍ وحاضر... بل بين أن يكون هو البداية أو النهاية.

أنفاس الرمل

كان الغبار يتحرك كأنه يتنفس، الرمل لا يطير... بل يزحف، والشمس، رغم شدتها، بدت كأنها لا تدفئ شيئًا.

من خلف التلال، ظهرت هي، امرأة بملامح غامضة، تسير في خط مستقيم وسط الصحراء، كمن يعرف أن هناك شيئًا ينتظره. ثوبها متشقّق، جلدها متعب... وعيناها كأنهما رأتا "إيلانور" من قبل.

في الوقت ذاته، استعاد نيراف وعيه داخل الممر الأسود بعد لمس المرآة، لكنه لم يعد وحده، كان هناك ظل غريب يمرّ بجانبه بين لحظة وأخرى، يهمس بلغات لا تُفهم، ويترك وراءه أصواتًا من ذكريات لا تخصّه.

نيراف (لنفسه): "هل هناك من أتى... كيف؟"

في مكانٍ آخر من المملكة، كانت "أريتا" تراقب الغيوم تتحرك بعكس اتجاهها المعتاد. رفعت يدها، ورسمت دائرة في الهواء، فظهرت خريطة ضبابية لـ "إيلانور"، لكن حدودها بدأت ترتجف.

أريتا (بقلق): "الحدود اتفتحت... لم يكن هذا ليحدث. مستحيل."

المرأة الغريبة كانت قد وصلت الآن إلى نقطة غريبة في الصحراء.

بئر مغطى بحجارة سوداء، حفرت تحتهم بصمت، وسحبت صندوقًا حجريًا صغيرًا، عليه نفس النقوش التي وُجدت على بوابات إيلانور.

المرأة (بهمس): "لم أتوقع أنك حقيقي... لكن حتى وقت لقياك."

وفي "إيلانور"، أحس نيراف بشيء في قلبه ينغرز، كأن شخصًا يعرفه... يتذكره. لكن فجأة، سمع صوتًا داخليًا:

"اللي جاي مش بوابة... اللي جاي باب للخروج أو النهاية."

توقف الزمن لثانية، ثم سمع نيراف أول نفس خارجي يدخل المملكة.

كان هواءً مختلفًا... دافئ، لكنه يحمل رائحة العالم الآخر.

نيراف (ينظر في الأفق):

"ماذا يحدث؟ هل هناك من يحاول الوصول إلي؟ أم يحاول إخراجي؟"

حين نطق الرمل

كانت الخطوات ثقيلة... ولكنها لم تكن تتعثر. المرأة الغريبة "رايلا"، كان هكذا اسمها، بلغت أخيرًا "إيلانور". لم تكن هناك بوابة، ولا حجرٌ سحريّ، بل كانت نقطة صدع في صخرة الوجود، كأن المملكة نفسها، وإن بدت عظيمة، بدأت تنزف من الداخل.

في أعماق "إيلانور"، جلس نيراف فوق أرض باردة، ولكنه شعر بحرارة تقترب، ثم... رأى ظلًا يظهر من البوابة السوداء. تغيّر الهواء، واهتزّ الضوء.

رايلا (بصوت هادئ): "كنتَ صغيرًا حين ألقوك هنا."

التفت إليها بسرعة.

نيراف: "من أنتِ؟ وكيف وصلتِ إلى هذا المكان؟"

رايلا: "أنا التي فتحت الطريق... وأنا من أغلقه منذ أعوام طويلة."

الذكريات بدأت تتسلّل إلى عقله، لا مشاهد واضحة، بل ومضات:

صوت امرأة تغنّي له وهو طفل، معبدٌ مهدوم، وصوت رجل يقول: "الطفل لا بد أن يُخفى."

وصوت أريتا تصرخ: "ما كان ينبغي لك أن تعرف!"

نيراف (مرتبكًا): "أنا أعرفكِ... لكن من أين؟"

رايلا (تنظر إليه بثبات): "أنا... أمُّك."

صمت ثقيل، لا ريح، لا صوت... سوى نبضه يتعاظم.

رايلا (تكمل): "والملك الذي أسّس المملكة... كان والدك، لكنّه خاف منك، خاف من نغمتك."

نيراف: "أيّ نغمة؟ عن أيّ شيء تتحدثين؟"

رايلا: "أنت لست مثلهم. أنت آخر نغمة خرجت من "نيرافا"، المدينة التي اندثرت قبل إيلانور، كنتَ الصوت الذي يهزّ التوازن، فقاموا بحبسك هنا... بين المرايا والبوابات والضياع، لكني لم أنسَك."

في تلك اللحظة... دخلت "أريتا". وجهها لم يكن كما عرفه "نيراف" من قبل، كان قاسيًا، مذهولًا، ولكن لا يُنكر.

أريتا: "رايلا... كنتِ السبب في كسر المملكة."

رايلا: "وأنتِ كنتِ الحارسة التي خافت أن تحرسه."

الهواء امتلأ بتوتّر قديم، وبكلمات لم تُقال.

نيراف (ينظر إليهما): "إذن... أنا ماذا؟ مفتاح؟ سلاح؟ لعنة؟"

رايلا: "بل أنت الحقيقة التي خشي الجميع من ظهورها."

ثم صرخت الأرض، وخرج من بين الرمال كائن غريب.... ليس ظلًا، ولا بشرًا، بل أثر الملك الأول... صدى صوته، جسده، لعنة تركها خلفه.

الملك القديم (بصوت يُسمع داخل العقول):

"أريتا... رايلا... نيراف... أخيرًا اجتمعتم، والبوابة الأخيرة... ستُفتح الآن."

انشقت الأرض، وظهرت بوابة لا تُشبه أيّ شيء من قبل، لم تكن حجرًا، ولا ضوءًا... بل نبضًا حيًا.

الأصل

لم تكن البوابة التي انشقّت عن الأرض تشبه شيئًا من قبل... لم تُنحت، ولم تُفتح... بل تنفّست. سطحها ليس من حجر، ولا من معدن، بل نسيجٌ حيّ ينبض بنغمة مألوفة لمسمع "نيراف".

كأن شيئًا بداخله يتحرّك ويصرخ: "لقد كنت هنا من قبل."

أريتا (بهمس): "هذه البوابة لم تُصنع... بل وُلدت."

رايلا (تنظر لنيراف): "هي تنتمي لك... كما تنتمي أنت لها."

تقدّم "نيراف"، مترددًا، ثم وضع يده على سطح البوابة... فلمس ذكرى.

ـ مشهد من ماضٍ غابر ـ

سماء من لهب، ومدينة تُدعى "نيرافا"، أبراجها ترتفع كأنها تداعب الشمس. رجال ونساء يرتدون الأبيض، يرنّمون بلغة من نغم.

وفي مركز المدينة، طفل صغير في مهد من زجاج ماء، عيناه مغلقتان، لكنّ الأرض من تحته ترتج.

صوت الملك (في الذكرى): "هذا ليس ابنًا... بل زلزال. إن بقي، ستنهار نيرافا كما انهارت المدن التي سبقتها."

رايلا (تصرخ): "إنه ابني! هو الأمل الأخير... هو النغمة المفقودة!"
ثم يأتي أمر الطرد، الطفل يُختطف، وتُغلق الذكرى كصرخة مكتومة.

فتح "نيراف" عينيه، دمه كان يغلي، ويده ترتجف فوق سطح البوابة.
نيراف: "أنا... كنت هناك."
أريتا: "أجل. أنت لم تُولد في إيلانور... بل جُلبت إليها لتُنسى."
رايلا (بهدوء): "والبوابة... تذكّرتك."

اهتزّت البوابة، ثم انشقّت كجفن يفتح عن عين قديمة. ورأوا خلفها عالَمًا لا يُشبه شيئًا من الواقع.
سماءٌ بلون الكهرمان، مخلوقات طيفية تُشبه ذكريات الناس، أصوات تشبه الموسيقى، لكنها تبكي.
نيراف: "ما هذا المكان؟"
أريتا (تنظر بدهشة): "إنه صدى المملكة الأولى... حيث خُزنت أرواح من اختفوا... وحيث تنتظر الحقيقة من يجرؤ على سماعها."

لكن ما لم يعرفوه... أن هناك من سبقهم إلى الداخل.

ظلٌّ يراقبهم منذ البداية، وجه مألوف من الخلف... لكن حين التفت، لم يكن بشرًا.

الصوت (من الداخل): "أخيرًا وصل الوريث... لكن هل ستُعيد النغمة؟ أم تُغرقها في الصمت مرة أخرى؟"

تناسخ الممالك

حين عبر "نيراف" البوابة، لم يشعر بقدميه تمسان الأرض. كل ما حوله تغيّر... الهواء، الضوء، حتى صوته لم يعد له صدى، وكأن المكان لا يعترف إلا بالأصل.

قصص ضغطت رأسه، ومضات ليست رؤى، بل ذكريات لا يتذكرها.

مدينة عظيمة تنهض من تراب دافئ، قُبّة من بلور تتوسطها، واسم محفور على جدارها المنحني: "أوتاليم" هكذا رآها.

هتافات، أناشيد، امرأة تقف في الظل تراقب مولد ملك جديد... وفي مهده، طفل بعينين تبرقان كاللهب. اختنق صدر "نيراف"، أغمض عينيه، فاندفعت ومضة أخرى.

رجل عجوز يحمل جرّة من الماء بين الجبال، صوته ساكن، يشير إلى طفل يجلس أمامه:

"حين تضيع الحقيقة في فم الزمان، تحفظها المياه. لا تتكلم... أنصت، فالنغمة لا تُقال، بل تُستشعر."

عينا الطفل غارقتان... كأنه يعرف النغمة قبل أن تُخلق.

"نيراف" فتح عينيه وهو يلهث، لم يكن المكان ذاته، لكن "أريتا" كانت هناك، تقف في مواجهته، وجهها أكثر جدية من أي وقت مضى.

أريتا: "ما رأيته ليس خيالًا، بل امتدادك. أنت خُزنت في الذاكرة الأولى، ثم تكررت."

نيراف (بصوت مرتجف): "أنا... لست إلا نسخة؟"

أريتا: "بل أنت التجسيد الأخير. السلسلة كانت تمهيدًا... أما القرار، فهو لك وحدك."

عاد إليه صدى صوتٍ عميق، لا يعرف مصدره:

"كل نغمة وُئدت، تركت صدًى في قلب العالم... حتى اجتمع الصدى الأخير فيك."

فجأة، اجتاحه مشهد لم يره... بل عاشه. هو جالسٌ على عرشٍ ذهبي، الممالك عند قدميه، وصوته، لا يقول... بل يحكم.

من بعيد، امرأة تصرخ: "إن نطقت النغمة، ستُخلق مملكة...

لكنك ستكسر الأخرى."

سقط على الأرض، يرتجف. تقدمت "رايلا"، وركعت أمامه.

رايلا: "أنت ابن النار والماء. ولدتك الممالك التي ضاعت،

والآن، إمّا أن تعلن النغمة... أو تدفنها للأبد."

رفع "نيراف" نظره إلى البوابة التي ما زالت نابضة في داخله، سمع كل صوت سكنه من قبل.

نيراف (بهمس): "لن أكون صدى بعد اليوم... سأكون البداية."

صوت العرش

عاد نيراف من بوابة النغمة، لكن لم يعد كما كان. كانت خطواته تُحدث صدى ليس في الأرض... بل في وجوه من رآه.

لم تكن "إيلانور" في انتظاره، كانت تتغيّر في غيابه. الضباب الذي كان يهمس، صار كثيفًا كجدار. القصور لم تعد تقف شامخة، بل انحنت كمن يعتذر. والناس... لم يعودوا كما تركهم.

ظهرت "أريتا" أمامه، لكن ملامحها كانت غريبة. عيناها ما زالتا حزنتين، لكن خلفهما... خوفٌ جديد.

نيراف (بصوت خافت): "ما الذي حدث؟"

أريتا: "لم تعد وحدك من يسمع النغمة."

سكتت، ثم أضافت أريتا: "هناك من حاول أن يُقلدك، ومن ادعى أنه عاد قبلك، ومن قال إن النغمة... لم تكن لك من البداية."

صعد "نيراف" إلى قاعة العرش، لم يكن ينوي الجلوس، لكنه وجده يتنفس. العرش نفسه كان ينتظر. وفجأة، انتشرت في القاعة ظلال.

رجال ونساء... لم يعرفهم، لكنهم نظروا إليه كما لو كانوا يعرفونه منذ قرون.

أحد الظلال (بصوت كالصدى): "هل تحمله؟"

نيراف: "أحمله... لكنه لا يُسمع بعد."

ظل آخر: "إذن، لن تصعد."

نيراف: "لن أصعد... بل سأُصعد من يستحق. فالعرش لا يُملك، بل يُسمع."

اهتزت القاعة، لم يكن زلزالًا... بل اختبارًا. كل من كان في القاعة اختفى في لحظة إلا "أريتا"، التي كانت تنظر إليه بدمعة واحدة، لا تسقط.

أريتا: "إنه بدأ، نيراف. العرش لن يكون لك إلا إن صمتَّ، والنغمة لن تُفتح... إن حاولت عزفها للناس."

اقترب من العرش، جلس وسمعها... أول نغمة حقيقية. لم تكن لحنًا، بل اسمًا.... اسمه.

وصايا النغمة

في الليلة التالية، لم ينم أحد في "إيلانور". ليس لأن الخطر يقترب، بل لأن النغمة عادت تُسمع. لكنها لم تكن كما اعتادها الناس من قبل؛

كانت متقطعة، غريبة، كأنها تُملي شيئًا... أو تُحذّر من شيء آخر.

في قاعة العرش، جلس "نيراف" وحده. ليس كملك... بل كـ"مستمع".

أمام العرش، وُضعت مرآة لم يرها من قبل، منقوش على إطارها:

"من سمع النغمة ولم يصمت، فقد خانها."

دخلت أريتا دون صوت: "لقد بدأت الوصايا في الظهور."

نيراف: "وصايا مَن؟"

أريتا: "وصايا الذين سبقوك، من حملوا النغمة... ولم يتحملوها."

قلبت صفحة من كتاب قديم لم يكن بيدها قبل لحظة، عليه نقشٌ بلغةٍ لم تُكتب إلا بالنغمة.

قرأ "نيراف" الكلمات دون أن يفهم كيف: "لا تجادل من لا يسمع، ولا تُنقذ من لم يسقط، ولا تتبع من سبقك... إلا إن عاد بلا ظل."

نيراف: "هل هذه نبوءة؟"

أريتا: "بل هي خريطة، لكنك لن تراها إلا إذا مت مرة... وعُدت ناقصًا."

سكت قليلًا، ثم همس: "لكنني لم أمت."

أريتا: "بلى... متّ حين صمت، والنغمة هي ما بقي منك."

في الخارج، كان الناس يتجمعون حول الضباب. ظلال جديدة تظهر، ووجوه قديمة تعود دون ذكرى. بدأت المملكة تتغيّر... لا بفعل "نيراف"، بل بفعل من بدأوا يسمعون بعضًا من النغمة.

وقبل أن ينتهي الليل، ظهرت رسالة على جدران القصر لم يُكتبها أحد:

"الوصية الرابعة ستُكشف عند الانقسام... وحينها فقط، سيعرف العرش من ينتمي إليه، ومن كان مجرد صدى."

ساحة السامعين

لم تكن "إيلانور" تعرف الفوضى... حتى بدأت النغمة تتكلم في أكثر من قلب. في ساحة المرايا، اجتمع العشرات، وجوه مألوفة... وأخرى كأنها خرجت من الحكايات القديمة. كلٌ منهم يدّعي أنه "سمع" شيئًا، وكل نغمة... مختلفة.

وقف "نيراف" في منتصف الساحة، صامتًا. لم يكن يعلم إن كانوا يتبعونه أم ينتظرون سقوطه ليسمعوا النغمة أوضح، كان الصدى يُضاعف كل كلمة يقولها، لكن لا أحد يسمع الحقيقة ذاتها.

شخص غريب بصوت مرتفع: "أنا من اختارته النغمة!"

امرأة مسنّة: "بل أنا من سمعت اللحن الذي تنكرت له المملكة!"

طفل: "النغمة قالت لي ألا أثق في أحدكم."

اقتربت "أريتا" منه ببطء، وفي عينيها قلق لم يعتده:

"حين تبدأ الحقيقة في الظهور في أكثر من صورة... لا يُصبح الخطر هو الكذب، بل كثرة الصدق."

كان لابد من اختبار. بُنيت ساحة قديمة خلف المعبد، عُرفت بـ"أرينا الحُكم". لم تُفتح منذ أن سقط أول ملك من نسل النغمة. وفي صبيحة اليوم التالي، دُعي "السامعون" إلى الساحة.

في منتصف الأرينا، وقفت "أريتا" تحمل صندوقًا حجريًا صغيرًا. بدا أنه تنفّس مرة حين فُتح، ومن داخله، خرجت نغمة واحدة فقط... لكن كل سامع سمعها مختلفة.

أريتا: "مَن توافقت نغمته مع الصدى... هو من يحمل البذرة الحقيقية."

وقفوا واحدًا تلو الآخر... البعض سقط باكيًا، البعض صرخ، وآخرون التزموا الصمت. لكن فقط أربعة منهم ارتجف الظل خلفهم لحظة سماعهم النغمة. واحد منهم... لم يكن بشرًا.

نظر "نيراف" إلى "أريتا"، ثم إلى ظلال من بدأوا يتجمعون خارج الأرينا.

نيراف: "من هؤلاء؟ لا أحد دعاهم."

أريتا (بصوت مبحوح): "السامعون... ليسوا وحدهم. النغمة بدأت توقظ ما نام طويلاً..."

صمتت، ثم قالت أريتا: "ربما لم يكن عرش إيلانور لك وحدك يا نيراف. ربما العرش نفسه... يُعيد اختيار الملك."

وقبل أن ينتهي اليوم، بدأت الشقوق تظهر في جدران المملكة، وبدأ الصدى يُغيّر شكله.

من لا ظلّ له

بدأت الأرينا تفرغ... لكن الهواء بداخلها ظلّ ثقيلًا. "نيراف" لم يتحرك من مكانه، كأن قدميه نبتتا جذورًا في الأرض. كان يراقب الأربعة الذين ثبتوا في مواجهة النغمة.

ثلاثة وجوه بشرية... وواحد، لم تستقر صورته حتى في عينيه. وقف الرابع في الظل، ملامحه ساكنة كتمثال، لكن عينيه كانتا تتحركان بسرعة... كأنهما تتعرفان على كل شيء، أو تتذكران كل شيء.

اقترب نيراف من أريتا وهمس:

نيراف: "أتعرفين من هو؟"

أريتا: "لا أعرفه... لكن المملكة تعرفه."

في تلك الليلة، اجتمعت الأبواب السبعة للمملكة للمرة الأولى منذ قرون، وكل بوابة كانت تُصدر نورًا مختلفًا.

بوابة الصدق رمادية...

بوابة الرغبة حمراء...

بوابة الفقد باهتة...

بوابة الذاكرة... متقلبة كضوء شمعة، والأخيرة، التي لم تُفتح بعد... كانت سوداء تمامًا.

"أريتا" جمعت الأربعة في ساحة مرايا داخلية. واحد منهم شابة تُدعى "مارا" قالت: "النغمة قالت لي أن أهرب."

الثاني: "وقالت لي أن أبقى."

الثالث: "أنا لم أسمع شيئًا... فقط شعرت بالبرد."

أما الرابع... فلم يتكلم، لكنه رفع يده، وظهرت على راحته علامة دائرية سوداء شبيهة بنقش قديم محفور على جدران "إيلانور"... نقش لا يراه إلا من سبق له أن مات في هذه الأرض.

في تلك اللحظة، اهتزت المرآة التي تقف خلف "أريتا"، وظهرت فيها صورة شبحية للملك القديم، منفيًّا، مبتسمًا، كأنه يقول:

"لقد بدأت النهاية من حيث ظننتم البداية."

نيراف صرخ: "أنت منفي! أنت لا تعود!"

لكن الصوت أجابه: "لست أنا من يعود... بل أنت من تُعيدني."

في الخارج، بدأت الرياح تتغير، والأرض التي كانت ساكنة تحت "إيلانور" بدأت تتنفس كأنها تُحضّر لشيء. ومع شروق شمس اليوم التالي، تغير لون بوابة واحدة فقط... البوابة الأخيرة.

وكتبت على سطحها عبارة لم تكن موجودة من قبل: "لا يدخلها إلا من عرف صوته الحقيقي."

سأل نيراف أريتا بصوت متهدّج: "هل نحن من نملك النغمة... أم هي من تملكنا؟"

ابتسمت أريتا، ثم قالت: "ربما... ما كانت النغمة سوى وعد. والوعد حين يُكسر... لا يصدر صوتًا، بل يبدأ من جديد."

عندما تغيّر الصدى

لم ينم أحد في "إيلانور" تلك الليلة، الهواء تغيّر، كأن النغمة نفسها تحولت من همس إلى رجعٍ مكسور.

وفي الساحة الداخلية للقلعة، اجتمع الأربعة السامعون مع "نيراف" و"أريتا"، بينما بقيت المرايا على الجدران تئن بصمت.

لم يكن أحد يجرؤ على النظر في الانعكاسات، كانت الوجوه هناك تتحرك... لكن ليس مثلهم.

مارا: "شيء ما دخل المملكة، أو ربما... شيء ما استُيقِظ."

وقف "نيراف" قرب البوابة السوداء... تلك التي لم تُفتح منذ أن نُسيت، وحين مرر يده على سطحها، أحسّ برجفة لا تخصّه، كأن ذكريات غيره تُنقل إلى دمه.

رأى عيونًا كثيرة... أصواتًا تئن... وصدى نغمة واحدة تتكرر:

"أنت لست أول نيراف... ولا الأخير."

أريتا بنبرة باردة:

"الكيان لا يدخل من البوابات... لأنه كان هنا من قبل أن تُبنى، إنه ليس ضيفًا، إنه ظلّ ما أخفيناه نحن."

في تلك اللحظة، صدرت صرخة حادة من أحد الأربعة، كان الشاب ذو العينين العسليتين قد سقط أرضًا، ممسكًا صدره، كل المرايا في

القاعة تشققت في اللحظة نفسها، لكن الزجاج لم يسقط، بل سقط الصدى.

في كل مرة تُكسر فيها مرآة في "إيلانور"، كان يُولد باب صغير خلفها، لكن هذه المرة، لم يولد باب... بل صمت... صمت كامل، كثيف، كأن الصوت قد انسحب من العالم.

نظرت أريتا إلى نيراف:

"إنه يختبرنا... لم يأتِ بعد، لكنه يعرف أننا نعرف."

أراد "نيراف" أن يتكلم، لكن لغته خذلته، كلمات الماضي اختلطت بالحاضر، ورأى في عيني "أريتا" لمحة من خوف، لم يكن يعرف أنها تعرفه.

نيراف بخفوت:

"أنتِ... من متى تعرفين أنني لست الأول؟"

أريتا وهي تدير وجهها عنه:

"منذ لحظة ولادتك... والمملكة تتنفس بطريقة مختلفة."

في فجر اليوم التالي، اختفت إحدى البوابات، اختفت تمامًا... كما لو أنها لم توجد، وعلى الجدار حيث كانت، كُتب بخط غريب لا ينتمي لأي عصر: "ما لا يُقال، لا يختفي... بل ينتظر."

في ذلك اليوم، أدرك "نيراف" شيئًا... أنه لم يكن يسعى لفهم المملكة،

بل كانت المملكة تسعى هي لفهمه.

ظلّ من لا يُسمّى

منذ اختفاء البوابة، والمملكة تشعر بأنها تنزلق... لا إلى سقوط، بل إلى ما قبل التكوين، لم تعد الأصوات تنعكس في الممرات كما كانت، حتى الريح التي كانت تمر عبر النوافذ العالية، صارت تتوقف عند العتبات.

جلس الأربعة في غرفة الدوائر السبعة... الغرفة التي لا يُفتح بابها إلا في لحظات الشك.

وكان "سامر" أصغرهم سنًا، وأكثرهم صمتًا، يحدّق في الجدار الفارغ الذي كانت تتوسطه البوابة المفقودة.

سامر هامسًا دون أن يلتفت:

"أنا رأيت هذه البوابة... قبل أن آتي إلى هنا."

توقفت الأنفاس، ثم تحدثت مارا:

"كيف؟ مملكة إيلانور لا تنعكس إلا للضالين.... لم تُرَ من قبل."

سامر:

"كانت مرسومة... في نفق قديم، كنت صغيرًا، ضائعًا في زقاق لا يقصده أحد، رأيت الجدار... وكانت عليه هذه البوابة، محفورة، تحيطها كلمات لم أفهمها حينها، لكنني لم أنسَها قط."

سكت الجميع إلا نيراف:

"أي كلمات؟"

مدّ سامر يده وأخذ قطعة فحم من الأرض، وكتب على الجدار:

"لا تدخل وحدك... فالصدى لا يرحم من لا يحمل صوته."

في لحظة، ارتجّت الأرض، وظهر ظلّ خلف الجدار، ليس كشخص... بل كامتداد لنغمة لا تُسمع، بل تُحسّ.

أريتا بجزع غير معهود:

"إنه ليس من هنا... إنه من قبل إيلانور."

كان "الظل" لا يشبه أي كيان مرّ على المملكة، لم يكن له شكل ثابت، ولا صوت، لكن كل الحضور سمعوه يقول دون أن يتكلم:

"لقد بدأتم نسيان أنفسكم... وهذا أول ما كنت أحتاجه."

انطفأت كل الشموع دفعة واحدة، وفي الظلام، لم يكن الصوت الوحيد الذي بقي... إلا صوت تنفّس "نيراف"، وإحساس خافت... أن أحدًا آخر يسكن جسده.

المرآة الأولى

لم يكن الليل في إيلانور يشبه ليل الأرض هنا، لا تشرق النجوم إلا إذا تذكّر أحدهم من هو، ولا تمطر السماء إلا إذا بكى حجر من أعماقها.

"أريتا" التي طالما بدت قوية، كانت الليلة تتجنّب النظر في المرآة،

تجلس في غرفة ذات جدار حجري، أمامها مرآة مغطاة بقطعة قماش رمادية، مهترئة من الأطراف.

لكنها تعلم... أن اليوم لم يعد يصلح للهروب.

أريتا، بصوت خافت كما لو تخاطب شبحًا:

"عدتُ، رغم أنني أقسمت ألا أفعل."

مدّت يدها ببطء نحو المرآة... وما إن أزاحت الغطاء، حتى انعكس وجهها، لا كما هو الآن، بل كما كان منذ خمسمئة عام.

كانت فتاة صغيرة، بشعر داكن يصل لكتفيها، تقف في ساحة القصر القديم، أمام الملك الراحل إيلمار.

الملك إيلمار: "أريتا... هل تعرفين ما يحدث عندما تعزف النغمة؟"

الطفلة بعينين مرتجفتين: "يُفتح الباب، سيدي."

الملك: "لا... النغمة لا تفتح الأبواب، بل تكشف من صنعها، وها أنا أطلب منك أن تحمليها، إن جاء يومها."

في تلك الومضة، بدا كل شيء واضحًا، "أريتا" لم تكن فقط "حارسة" المملكة، بل كانت الوارثة المؤجلة للنغمة.

صوت غامض من خلف ذاكرتها، لم يكن صوت الملك:

"لكنها رفضت... وخانتهم."

جفّت أنفاس "أريتا"... ذلك الصوت لم يكن من الماضي، بل من ظلّ الحاضر.

عادت المرآة تعكس صورتها الحالية... وفي عينيها، ظهر انعكاس "نيراف" واقفًا خلفها، رغم أنه لم يكن في الغرفة.

تلفّتت... الغرفة فارغة.

أريتا، هامسة:

"بدأوا بالاقتراب... ولم أعد أملك الوقت."

من خارج النافذة، يُسمع صوت الغناء نفسه الذي سُمع يوم اختفى القمر لأول مرة، صوت لم تُعرف كلماته أبدًا، لكن كل من سمعه... شعر أنه صوت تنفّس نيراف، فأصابهم إحساس خافت... أن أحدًا آخر يسكن الجسد.

حين يتكلّم الصمت

لم يكن نيراف نائمًا... لكنه لم يكن مستيقظًا أيضًا، كان عالقًا بين لحظتين.... لحظة سكون "أريتا" أمام المرآة، وتلك النظرة التي رآها في انعكاسها، وكأنها تركت له بابًا مفتوحًا دون أن تدرك.

فتح عينيه داخل قاعة لا يتذكر دخوله إليها، الجدران حوله منحوتة بحرفية عتيقة، وأرضيتها من حجر رمادي تشوبه تشققات ناعمة، كأنما الزمن نفسه مرّ من هنا وتردّد في البقاء.

في وسط القاعة، عمود رخامي ملتفّ عليه نقش لا يشبه حروف المملكة التي يعرفها... بل يشبه نقش الأحلام.

اقترب ببطء، مدّ يده، ما إن لامس النقش، حتى انشقّ الحائط المجاور بصمت... وكأن الحجر اختنق.

خلف الحائط كانت هناك غرفة صغيرة، بلا باب، بلا نافذة، وفيها، خريطة قديمة منقوشة على لوح حجري بها سبع بوابات.

ستة منها يعرفها.... أما السابعة، فكانت مرسومة في مكان غير موجود على أرض إيلانور.

نيراف (بهمس):

"هذه ليست خريطة للمكان... بل للزمن."

فجأة، لاحظ شيئًا لم يكن يراه قبل لحظات، ظلال تتحرّك على الجدران، لكن لا ضوء في المكان ليُنتجها، ولا حركة فيه سواه.

اقتربت الظلال منه... لكنها لم تلمسه، بل التفّت حوله كما لو كانت تقرأه، كأن كل حركة منه، كل نفس، كل ذكرى، تُسجّل في صمتها.

ثم سمع الصوت... صوت لم يكن صوتًا، بل إحساسًا يتردّد داخله.

الصوت الداخلي:

"لم تكن نغمتك لك وحدك... بل صدى لما لم يُولد بعد."

تراجع "نيراف" خطوة إلى الوراء، لم تعد هذه المملكة كما عرفها.

في لحظة خاطفة، ظهر وجه "أريتا"، لكن هذه المرة... لم يبدُ وجهها حنونًا كما كان.. كأن فيه شيئًا آخر.

سؤال..... انتظار.... وخطر لم يُحدث بعد.

نيراف بنبرة ثابتة:

"أنتِ تعلمين... لكنني سأتعلّم، ولو كلّفني ذلك أن أصبح ظلاً أنا الآخر."

..... وانطفأ النقش فجأة دون أن يدرك.

عمياء النغمة

لم تكن "راشا" ترى، لكنها لم تكن عمياء بالمعنى الذي يفهمه الناس.

فهي منذ وُلدت، لا تبصر العيون ولا الوجوه، لكنها ترى ما لا يُراد له أن يُرى، فهي ترى أثر النغمة.

عاشت ثلاثين عامًا في منفى اختارته لنفسها... عند حافة كثبان "غابور"، مملكة أخرى أصابها النسيان، في كوخ من طين رمادي، سقفه من سعف، وجدرانه من الصمت.

في تلك الليلة، قبل أن يرتجف الحجر تحت قدمي "نيراف"، وقبل أن تهمس "أريتا" بكلمات لا تتبع أي لحن... راشا استيقظت فجأة.

كان الهواء في كوخها ثقيلاً، والأرض تصدر نغمة خفيّة لا يسمعها إلا من عايش اللعنة الأولى.

راشا (بصوت خشن متوتر):

"عاد الصوت... لكن لم يعد كما كان."

تحسّست جدار الكوخ بباطن كفّها المليئة بالشقوق، وبدأت تسير نحو النقطة التي دفنت فيها المرآة.

كانت مرآة ممنوعة... واحدة من تلك التي صُنعت قبل أن تنقسم المملكة، وقبل أن تُنفى الأصوات المخالفة.

حفرت الأرض ببطء، ثم أخرجت المرآة الملفوفة بقطعة قماش أرجوانية، وضعتها أمامها... ثم جلست.

رغم أنها لا ترى، إلا أن صورةً انعكست على السطح الرمادي المتشقق للمرآة.

"نيراف" واقف في قاعة الظلال، تتقاطع حوله خطوط لا نهائية، كأن الزمن يُحاول خياطته من جديد.

راشا (بهمس):

"هو... لكن ليس وحده."

ظهر في المرآة ظل آخر خلفه... لا يتبع خطواته، بل يسبقها. راشا ارتجفت، تذكّرت وصايا النغمة، وصوت أريتا حين نُفيت:

"من يخرج من المملكة لا يراها ثانية... إلا إذا كُتب عليه أن يكون مفاتيحها."

مدّت يدها إلى الجدار، وأخرجت صفًا من الكُتل الصغيرة... حروف طينية قديمة، راحت ترتبها بصمت، ثم قالت:

"بوابة جديدة ستُفتح، لكن هذه المرة... ليست داخل المملكة بل خارجها."

وسمعت في أعماقها... صدى النغمة، موجة لم تُكتمل، كأن المملكة ذاتها تنادي كل من فقد النغمة ليمنحها اسمًا جديدًا.

ثم ابتسمت:

"أريتا... أيتها الحارسة، لن تكوني آخر من يعرف السر."

نداء المرآة

لم يكن "نيراف" قد رأى صورته بهذا الوضوح من قبل... لا في مياه النبع، ولا في زجاج النافذة، ولا حتى في عيون العابرين.

لكن ما ارتسم على صفحة المرآة الآن لم يكن فقط انعكاسه، بل شيء آخر، ظلّ يتنفس على حافته.

اقترب بخطى مترددة، قلبه، الذي تعوّد الصمت، بدأ يُصدر خفقًا له صوت. المرآة ما زالت صامتة، لكنها حيّة. لا تشبه الأشياء، بل تشبه الانتظار.

رفع يده ليلامس سطحها، فارتعشت صورته، لا كأنها تهتز، بل كأنها تتبدل. في لمحة، رأى عيونًا ليست عيونه، ثم اختفت.

شعرٌ أشدّ سوادًا من ليله، وأنفاس غير منتظمة، تشبه تنفّسه بعد صعود جبل، ثم، بصوت لم يصدر عن فمه، قال:

"أنا لست وحدي."

تراجع "نيراف"، الصوت لم يكن غريبًا تمامًا... فيه نبرة منه، من صوته، لكنه جاء كما يأتي الحلم حين يتسلل في لحظة يقظة.

"من أنت؟!"... سأل بصوتٍ أعلى، لكن الصدى لم يرجع هذه المرة.

بدلًا من ذلك، ظهرت دائرة صغيرة من الضوء في طرف الغرفة، كأن المرآة فتحت بابًا جديدًا دون أن تُحرّك شيئًا.

تقدّم نحو الضوء، وكل شيء في جسده يصرخ ألا يذهب، لكنه ذهب... الضوء ازداد، وتحول إلى نفق قصير تقوده قدماه بلا مقاومة.

جدرانه ناعمة كحجر صقيل، وأصوات خفيفة، كهمسات أو أنين ناعم، ترافقه. في نهاية النفق، ظهرت قاعة مستديرة، أرضها من زجاجٍ يشفُّ عن السواد، وفي منتصفها... مرآة جديدة، ليست كالأولى.

هذه المرة، لم تعكسه هو، بل عكست امرأة كانت تقف وحدها في صحراء، بظهرها إليه، وريحٌ تُلاعب أطراف خمارها. لكنها التفتت، ونظرته مباشرةً.

"أريتا"..... "مستحيل..." همس نيراف.

ثم جاء الصوت، لا من فمه، بل من أعماق النغمة التي رافقته منذ بداية رحلته، صوتٌ لا يُعرف جنسه ولا مصدره:

"هل ظننت أنك السائر الوحيد؟ كل من حمل النغمة، حمل ظلًا معه... والسؤال الحقيقي ليس: من أنت؟ بل: كم منهم بداخلك؟"

تراجعت الصورة، المرآة انطفأت، والنفق أغلق خلفه. وحده... أصبح الآن ليس متأكدًا إن كان وحده فعلًا أم أنه استكمال لذاته الماضية.

قبل أن يهتز الصمت

لم تكن المرآة في محرابها تهتز منذ قرون، لكن الآن... كان السطح اللامع يتنفس.

"أريتا" التي اختارت النسيان طوعًا، شعرت برجفة في عظامها، كان الصوت يعود، ليس صوتًا تسمعه، بل طنينًا تشعر به في أنسجة ذاكرتها.

نغمة واحدة، مألوفة، لكنها ناقصة... كأن نصف الحقيقة عاد يبحث عن النصف الآخر.

"هو على الطريق"، همست، ولم يكن هناك أحد ليسمع، سوى الرماد المتجمّد في زوايا غرفتها، وساعة الرمل التي لم تنقلب منذ انسحاب القمر.

اتجهت نحو النافذة، تطلّ على لا شيء، كانت الأرض هناك فارغة كما اختارت أن تكون... لكن ضوءًا خافتًا بدأ يظهر من أحد البوابات.

بوابة لم تُفتح منذ العصر الرابع...

"نيراف... يا ابن الأصداء القديمة، لم تأتِ وحدك. لم يكن أحدهم وحده يومًا."

مرّت يدها فوق كتابها القديم، سِجل النغمة، لم تجرؤ على فتحه منذ العهد الأخير، لكنها تعلم.. حين تُفتح البوابات، لا يُسمح لها بالوقوف صامتة.

خرجت من معبدها لأول مرة منذ ألف فصل، ورفرفت عباءتها كما لو كانت تحمل صوتًا لا يُسمع... فقط يُوقِظ.

دخلت "أريتا" الدهليز الذي لا تُضاء شُعَبُه إلا حين تهتز بوابة من بوابات المملكة، على الجدار نقشٌ قديم، لا يُقرأ إلا باللمس، مرت أطراف أصابعها عليه كما يمرّ اللحن على أوتار كمان مهجور.

فُتحت البوابة أمامها ببطء، لا بصوت، بل بتنفس قديم... كأن المكان يتذكّرها.

في قلب القاعة الكبرى، كانت هناك مرآة.. ليست كسائر المرايا.

سطحها عاتم، لا يعكس وجهًا، بل نوايا من يقترب.

وقفت أريتا أمامها، وقالت بصوت بالكاد يُسمع:

"أنا لم أُسمَح لهم بالاختيار... لكنّهم سيُخيّرون، فليكن الصدق أول باب... وليكن العابر مستحقًا."

اهتزّ سطح المرآة... ثم بدأ يعرض صورًا متتابعة، ظلال أشخاص... وجوه مألوفة... "نيراف" وهو يتقدّم نحو بوابة الصدق... لكن لم يكن وحده، كان خلفه هناك ظلّ آخر، لا يشبهه، لكنّه يسير على نفس الخطى.

شهقت أريتا، ثم أغلقت قبضتها بقوة:

"أعادوه، لم يكن نيراف وحده... ما ظننته خيالًا بدأ يتجسّد."

سارت نحو الجدار، أزاحت صخرة صغيرة، وأخرجت منها عقدًا من حجر الليل، كان عليها أن تحمي النغمة، لكن لم يكن بيدها أن تقرر من سيملكها...

"لستُ أنا من يحكم... المملكة هي من تختار."

صدى الانقسام

كان الهواء أثقل من المعتاد، ليست تلك الرطوبة الخانقة، بل إحساسٌ يشبه الذنب، كأن المملكة نفسها تتنفس ببطء... تحت وطأة قرار لم يُتخذ بعد.

وقف "نيراف" أمام البوابة السادسة، والتي لم تكن بوابة كما عهد من قبل... لم تكن حجرًا أو نقوشًا، بل انعكاسٌ على صفحة ماء راكد في كهفٍ مفتوح على السماء.

كلما اقترب، تكسرت صورته، وكلما ابتعد، اتضحت، كأنها تسخر منه.

"أنت لست وحدك."

جاء الصوت هذه المرة من داخله... لكنه لم يكن صوته.

توقف، شعر ببرودة تسري في عظامه، ولفحة هواء تمس جلده دون أن تتحرك الأوراق من حوله، ثم سمعها بوضوح، النغمة نفسها كانت ترتجف:

"من أنت؟"

سأل بصوت مرتجف، لكن الظل الذي انعكس بجواره لم يجب.

كان يحمل ملامحه... ويختلف عنه في شيء لا يُفهم.

وفجأة انبعثت من الماء ومضة، ووجد نفسه في مكان لا ينتمي للآن.

السماء فوقه رمادية بلا شمس، والأرض تحته تتهشم مع كل خطوة.

ثم... ظهر الكيان، كان نسخة منه، أطول قليلاً، أهدأ في الحضور، لكن في عينيه حزنٌ لم يعشه "نيراف" من قبل.

"أنا أنت... في زمن لم تصل إليه."

قالها الكيان.... واقترب:

"وأنت لست المختار الوحيد. بل المختار التالي."

"نيراف" لم يجب، لكن النغمة أصدرت صوتًا خافتًا، كأنها تعترض.

الكيان مد يده، وظهرت علامة قديمة على معصمه... نفس العلامة التي رآها "نيراف" في أحد الكهوف المغلقة خلف البوابة الرابعة.

إذن... هو لم يكن أول من سمع النغمة، ولم يكن آخر من سيحملها.

"المملكة لا تختار... إنها تُكرّر."

وهنا بدأ الجدار خلف الكيان ينهار، ليكشف عن صورٍ لأرواح أخرى.... رجال ونساء من عصور مختلفة، كلهم يحملون ذات النغمة، لكنهم انتهوا على ذات الأرض، في صمتٍ لا يُفك.

ميراث الصوت

كان الظلّ لا يزال يلتفّ حول جسده مثل لُعنة قديمة. "نيراف" الواقف عند العتبة بين النغمة والعدم، شعر للمرة الأولى أن الصوت بداخله لا يُشبهه، بل يُشبه شيئًا آخر... قديمًا، غريبًا، وربما... خائنًا.

قال الكيان، بصوت لم يكن يُقال بل يُسمع في الروح:

"أحسنت... فتحتَ البوابة، ولكنك لست الأوّل."

التوتر اخترق العظم، لم يكن مجرّد تهديد، بل إعلان بوجود سلالة صوت، امتدت قبله... وربما فوقه.

اقترب الظل، ولم تكن خطواته تُسمع بل تُحسّ، كأن الهواء انكمش من حوله:

"كم نيرافًا قبلك حاول أن يُعيد اللحن؟ كم صوتًا خان، أو ضل، أو احترق؟ أنت... مجرد وميض آخر في سلسلة تُطفأ بنفس السرعة التي تشتعل بها."

"نيراف" الذي ظنّ لوهلة أنه استعاد نفسه، شعر أن النغمة تهتز في صدره. لم تعد ملكه، بل كانت تُقيم فيه مؤقتًا، تنتظر من يستحق.

قال بصوت متهدّج:

"ومن كان قبل؟ من أنتم؟ ولماذا أنا؟"

لم يجب الكيان بكلمات، بل بانفجار من الصور. وميض نار، امرأة بنصف وجه، طفل يصرخ داخل مرآة، بوابات تذوب وتُعاد تشكيلها.

رأى "نيراف" انعكاسات وجوه تُشبهه، وتُخالفه. كلّهم مرّوا.

كلّهم حملوا النغمة، كلّهم فشلوا.

"النغمة ليست مُلكًا... هي ميراث تختارك لتُجربك... ثم تُقرر."

في تلك اللحظة، عرف "نيراف" أن رحلته لم تكن لاستعادة ما فُقد، بل لإثبات أنه لا يستحق أن ينسى. لكنه لم يكن وحده في تلك الغرفة.

صوت "أريتا" تسلّل من خلف الجدار الحجري:

"يكفي. دعه يرى النهاية بعينيه، لا بأوهامكم."

الضوء انكسر، وانفتحت جدران المكان مثل كفّ تُعرض فيها الحقيقة... مرآة هائلة من الحجر، تعكس لا ملامح "نيراف"، بل ذكرى رجل آخر... شخص يشبهه تمامًا... ويحمل ذات العيون التي كانت تملأ أحلامه بالأسئلة.

قالت "أريتا":

"هذا هو أول من حمل النغمة... وهذا أنت... إن اخترت أن تُكمل."

في صمتٍ مشحون، أدرك "نيراف" أخيرًا... النغمة لم تكن وعدًا بالخلاص، بل اختبارًا مستمرًا... وأن ميراث الصوت... لا يُمنح. بل يُنتزع.

غرفة الصدى

لم يكن الصوت الذي تبقّى في رأس "نيراف" صوتًا بشريًا. لم يكن نداءً، بل ارتدادًا، كأن ماضيه صرخ فيه من أعماق بئر لا قرار له، ثم سكت.

فتح عينيه على مكان غريب، لا أرض تحته، لا سقف فوقه، فقط ضوء أبيض كثيف يطفو، وصدى خطواته يسبقه دون أن يمشي.

مدّ يده فلم يرَ شيئًا... ثم، شيئًا فشيئًا، تشكلت الغرفة.

لم تكن غرفة بالمعنى المفهوم، بل فراغ ذو جدران من زجاج معتم.

كل جدار عكس صورته، لكن بطريقة مختلفة.

... في أحدها، ظهر طفل يحمل آلة موسيقية مكسورة.

... في آخر، رجل بعينين مظلمتين يراقب مدينة تحترق.

... وفي الثالث... "أريتا" تبتسم له، ولكنها تنظر إلى شخص خلفه.

استدار، فلم يجد أحدًا. صوت خافت، من مكان غير معروف:

"كل نغمة تحمل ظلًّا، لكن هل أنت النغمة؟ أم صداها؟"

شعر بشيء ينهار داخله، وكأن جسده لم يعد يحتمل كل تلك الانعكاسات. وفجأة، انقسمت الغرفة، الزجاج بدأ يتشقق.

والصدى صار كلمات متضاربة:

"أنت الأخير... أنت البداية..."

"لا أحد يملك النغمة، بل تُمتلك به..."

ثم توقفت كل الأصوات... وانطفأ الضوء.

في مكان آخر... في قاعة قديمة في أعماق "إيلانور"، جلست "أريتا" أمام مرآة دائرية. لم تكن صورتها تظهر، بل صورة "نيراف".

كان يصرخ، ولكن بلا صوت.

وضعت يدها على سطح المرآة، وقالت همسًا:

"إذا انكسر الصدى، لن يبقى إلا الأصل... فاختر، يا نيراف، من تكون."

كانت الجدران تنبض، كما لو أنها قلبٌ نائم بدأ يستفيق. وقف "نيراف" وسط الغرفة، صامتًا، يتنفس ببطء، لكن الهواء نفسه كان غريبًا... كأن شيئًا يمر خلاله قبل أن يصل إلى صدره.

كل خطوة في المكان كانت تُعيد له صوتًا نسي أنه قاله من قبل. صدى ضحكته الأولى، بكاءه عند موت أمه، نداءه لراشا ذات ليلة صيفٍ لا تُنسى.

كان محاطًا به، بنفسه... ولكن ليس وحيدًا.

فجأة، انطفأت أضواء الغرفة، وظهرت في الجدار المقابل انعكاسات تتحرك وحدها. لم تكن مجرد ظلال... بل صورٌ مشوشة لوجوه تشبهه... وتختلف عنه.

رجلٌ بعينين من رماد، امرأة تشبه "أريتا" لكن شَعرها أبيض كالملح، وطفل صغير يُمسك بعودٍ مكسور... يعزف دون صوت.

سار "نيراف" نحو الجدار، لكن صوته أوقفه:

"أنت لست أول من دخل هذه الغرفة، ولن تكون الأخير."

التفت "نيراف"، ولم يجد أحدًا. فقط صدى صوته الآخر، أقدم، أعمق، كأن الأرض نفسها تتحدث من خلاله.

"من أنت؟"

"أنا أنت... لو اخترت غير الذي اخترت."

اهتزت الأرض لحظة، وارتفعت على الجدران كتابة بلغة لم يعرفها، لكن قلبه فهمها. نُقِشَت في الضوء، لا بالحبر:

"الملك لا يُولد... بل يُعاد صُنعه حين ينكسر صوته."

كان عليه أن يلمس الجدار، لم يكن لديه خيار. مد يده، وعندما لامست راحته الجدار البارد، تحوّل الحجر إلى سطح كالزجاج.

وفي المرآة المقابلة... لم يرَ نفسه، بل رأى "أريتا" راكعةً أمام عرش فارغ، تهمس بشيءٍ لا يسمعه. ثم، ظهر خلفها كيانٌ طويل، مغطى بعباءة من رياح سوداء، يتقدّم نحوها...

انكسرت المرآة فجأة، وتناثر الزجاج في الهواء، لكن لم يسقط منه شيء على الأرض... الغرفة هدأت، و"نيراف" كان قد تغيّر.

شيءٌ ما انكسر داخله؟... أو ربما بُني لأول مرة!

كان الضوء خافتًا، كأن السماء علّقت أنفاسها، والنغمة التي عزفها "نيراف" لم تعد تهدهد، بل تقوده... أو تُضلّه.

في السكون الذي التف حوله، راحت الرمال تتحرك، كأنها تستيقظ من سبات طويل، والهواء امتلأ بما يشبه الرجع، لكن لا مصدر له، فقط أثر لا يُرى ولا يُفسَّر.

صوت الخطوات الغريبة لا يزال يتردد من خلفه. لا يُشبه وقع إنسان، ولا حتى زحف كائن حي، بل كأن الماضي نفسه بدأ يتحرك.

مدّ يده، لكنه لم يلمس سوى فراغ بارد كالوهم، فراغ يعرفه جيدًا، لأنه كان يسكنه منذ خرج من "البوابة الأولى".

ومع كل دقة صدى، تشتد الذكريات داخله... ذكريات ليست له.

كان يعرف أن النغمة أطلقت شيئًا، وأن ما استُدعي ليس جزءًا من العالم الذي يعرفه.

كان الكيان الذي يظهر أمامه مثل ظلال كثيرة تتراكب، لا تُرى بوضوح، لكنه يشعر بها تتنفس حوله، تتغذى على ترددده، تنتظر منه قرارًا.

وفي لحظة خاطفة لم تدم سوى رمشة، لمعت في ذهنه صورة "أريتا"... لم تكن تنظر إليه، بل كانت تعزف، والنغمة التي عزفتها لم تكن موسيقى، بل عهدًا. عهدًا قديمًا، انكسر ذات زمن، وبكسره فُتحت أول بوابة.

صوتها الخافت تسلل إلى ذهنه دون أن يسمعه:

"كل نغمة تمنح، تسرق شيئًا. لا تواصل إلا إذا كنت مستعدًا أن تُفقد."

"نيراف" أدرك أن كل ما مضى لم يكن إلا إعدادًا. الآن، باتت النغمة أكبر من أن تُحتوى في صوت أو عزف، صارت مفاتيح للواقع، ونداءً لما خلفه.

الهواء تلبّد، وكأن العالم في طريقه ليعيد تشكيل حدوده. وعلى أطراف الرمال، ظهرت أقدام لم تكن بشرية، لكنها مألوفة... أقدام غريبة ترتدي أثرًا من عالم آخر، مكسوّة بالغبار، تحمل رائحة لا تنتمي إلى المملكة... شيء من خارج "إيلانور" دخل.

لم يعد وحده. لم تعد النغمة تخصه فقط... هناك من استمع... وهناك من أتى، ليس ليساعد... بل ليدّعي أنه الأجدر.

الهامس الذي كان في الصدى صار له صدى آخر، أقوى، كأنه لم يكن رجعًا، بل استدعاء.

الرمال التي كانت تهتز تحت قدميه بدأت تنحسر، تكشف عن شيء صلب، أملس، لا ينتمي لطبيعة الصحراء. كأنه طريق أو جدار، مرسوم عليه رموز لا يفهمها، لكنها تُشعره بأنها تعرفه.

ثم... حدث الشرخ.

من قلب الرماد تصاعدت نغمة أخرى... لا تشبه نغمة "نيراف"، لا تمتّ لها بصلة، لكنها مألوفة ككابوس قديم. ارتجف العالم.

تفتحت بوابة جديدة، لم يمر بها أحد. كان لونها أسود، لا يلمع ولا يعكس الضوء، كأنها ابتلاعٌ للزمن.

خرج منها كيان طويل القامة، ملفوف بالسواد، لا يُظهر وجهه، لكنه يزأر دون صوت.

ارتجف الهواء حوله، وماتت الريح، وسقطت الرمال ساكنة كما لم يحدث منذ بدء المملكة.

نظر إليه "نيراف"، وكل ما في داخله صاح دون صوت:

"هذه النغمة... ليست منّا."

لم تكن النغمة فقط تهديدًا، بل إعلانًا... هناك من كسر الجدار بين "إيلانور" والعالم الآخر.

هناك من يريد أن يملك النغمة، لا ليستمع إليها، بل ليُخضع بها العالم.

وعند تلك اللحظة، سمع "نيراف" صوت "أريتا"... لا من بعيد، بل من داخله:

"إن لم تغلق البوابة... لن يبقى شيء."

وانتهى الحال... على صمت ثقيل، كأن المملكة كلها توقفت عن التنفس، في انتظار القرار التالي.

الارتجاج الأول

لم تكن الأرض قد هدأت بعد تحت قدمي "نيراف" ولا النغمة في صدره عادت إلى توازنها، حين خفّ ضوء النهار فجأة كما لو أن الشمس تذكرت شيئًا مفزعًا....

أصوات الرمال تغيّرت، لم تعد حفيفًا، بل نبضًا مكتومًا... كأن المملكة كلها تتنفّس بقلق.

وقف "نيراف" عند حافة الساحة الصامتة، حيث لا شيء يُرى، لكن كل شيء يُحَس. هناك، عند تخوم البوابة الخامسة التي ما زالت خلفه، شعر وكأن شيئًا ما يُراقبه، لا بعينين، بل بإدراك أعمق... شيء يعرفه ولا يعرفه.

صوت في داخله همس:

"ليس كل من حمل النغمة صار أهلًا لها."

نظر حوله، الرمال تتراجع. الأشجار القليلة المتناثرة التوت كما لو أنها تسمع وقع خطوات قادمة من بعدٍ لا يُقاس بالمسافة.

وفجأة اهتزّ الهواء... لم يكن ريحًا، بل تموّجًا، وكأن الواقع نفسه تشقّق.

ظهرت خطوط رقيقة في الفضاء، ثم اختفت، كما لو أن أحدهم فتح بابًا خلفيًا للزمن.... "نيراف" لم يتحرك، لكن النغمة في داخله اضطربت... صارت خافتة، مُشوَّشة.

"أهي تَخاف؟ أم تحذر؟ أم تُنذِر؟"

ثم أتى الصوت... لا من الخارج، بل من الذاكرة.

صوت "أريتا".... هادئ، مشقوق، كأنه قادم من مسافة غريبة:

"حين تهتزّ النغمة... ابحث عن صداها في غيرك."

لمح "نيراف" شيئًا لم يفهمه مرّ في أعماقه... أحسّ بأنه لم يعد وحده.

صدى ما... ظلّ غير مرئيّ... مرّ بجانبه. كان باردًا، قديمًا، وفيه من الصوت ما يُشبهه... لكنه ليس هو.

صوت يعرف طريق النغمة... وربما يريد سرقتها. أحسّ بخطر لم يعرف اسمه، لكنه أقدم من المملكة ذاتها.

تراجع "نيراف" خطوة، لا عن خوف، بل ليحفظ المسافة بينه وبين ذلك "اللاشيء" الذي أصبح فجأة حاضرًا.

الهواء أمامه تموّج من جديد، وهذه المرة لم يختفِ فورًا.

كأن خيطًا من دخان أسود رسم ملامح وجه... لا يمكن رؤيته، لكن يمكن القول به.

صوت خرج، هذه المرة من خارج جسده، لكنه يحمل نفس النغمة المشوّهة:

"تأخّرت."

كان الصوت خفيضًا، كأن الزمن نفسه يتكلّم من حلقٍ ممزق:

"النغمة لا تنتظر المتردّدين."

"نيراف" قبض يده. الحرارة انسحبت من أطراف أصابعه. لم يكن يعرف من الكائن، لكن الصوت أثار شيئًا قديمًا فيه.

كأن أحدًا يوبّخه من جرحٍ نسيه... سأل، دون صوت:

"من أنت؟"

فجاءه الجواب، لا بكلمات، بل برؤية.... صحراء تحترق من الداخل.... ممالك سقطت في صمتٍ دون حرب.... امرأة ذات عينين كالليل... تمشي في مرآةٍ مكسورة.

ثم عاد الصوت:

"أنا صدى من قبلك... أنا الذي لم يُختر... أنا الذي حَمَل النغمة... وكسَرها."

صرخة خافتة خرجت من الأرض. لم يكن صوتًا بشريًا، ولا حيوانيًا... بل صوت شيء ينفجر ببطء داخل قلب العالم.

"نيراف" تحرّك، ليس هربًا، بل ليقف أقرب، أقوى، رغم شعوره برجفة في أعماقه:

"ما الذي تريده؟" سأل، وهذه المرة بصوتٍ حقيقي.

الصدى أجاب بعد صمتٍ طويل:

"أريدها أن تُخطئ من جديد."

ثم اختفى وكأن الكيان لم يكن إلا ظلاً لجملة لم تُكتَب بعد... لكن الرمال احتفظت بحرارته... والنغمة... لم تعد كما كانت.

"نيراف" لم يفهم كل شيء، لكنه علم يقينًا أنه ليس أول من مشى هذا الطريق، وأن هناك من مشى قبله وسقط.

خطا للأمام، وكان التراب يختلف. لم يعد رملاً فقط، بل خليط من بقايا زجاج محطّم، وبذور غير معروفة.... وكأن الأرض نفسها تحتفظ بذكريات محاولات قديمة... فاشلة.

كان يظن أن الصوت اختفى، لكن حين لمس إحدى الشظايا الزجاجية، سمعها... هي، لم تكن تقول اسمه، بل تنشده.

"نيراف... لا تفتح الباب قبل أن تنكسر تمامًا."

"أريتا" بلا شك.

لكن كيف؟ وأين؟..... رفع الشظية أمام عينيه، فانعكس وجهه مشوشًا، مشوبًا بظلٍ ليس له. ومن خلفه... كان هناك باب.

لم يكن مرئيًا قبل لحظة. بُني من حجارة داكنة، كل حجر منها منقوش برمز يخص بوابة من البوابات السابقة. لكن في المنتصف، رمز جديد... لم يره من قبل.

كان يُشبه قلبًا مقسومًا، تنبت من أحد شقيه شجرة، ومن الآخر... لهب. همس في داخله شيء لم يرد أن يسمعه:

"هذه بوابة الحقيقة الكبرى... حيث لا تعود كما كنت... إن خرجت." فتراجع خطوة..... ثم تقدم اثنتين.

بوابة الحقيقة الكبرى

لم يكن الباب ينتظر أحدًا. كان كائنًا في حدّ ذاته، ينبض... يتنفس... يراقب. حين لمس "نيراف" النقش الأوسط، لم تُفتح البوابة كما في المرات السابقة.

بل غيّرت شكلها، كأنها تقرأه.... ومضة، ثم ثانية، ورأى نفسه واقفًا في غرفة لا يتذكرها، لكنها كانت تعرفه.

"مرحبًا بك، من أنت؟" سؤال كُتب بالنار على الجدران.

لم يُجب...

الهواء كان ثقيلاً، ليس من الحرارة، بل من الاعتراف. هنا، لا يُسمح بالصمت. انعكست صورٌ على الأرض اللامعة...

صور من الطفولة.....

"نيراف" في حضن أمه، يبكي على وعد لم يُفهم بعد.

ثم صورٌ من الصحارى.....

"نيراف" يقفز من كثيب لآخر، يركض نحو شيء لا يراه.

ثم صورة.....

هو على الأرض، والنغمة تنزف من بين أصابعه.

الصوت عاد، لكن بصوت "أريتا" هذه المرة، أقرب ما يكون إلى الرجاء:

"البوابة لا تفتح لمن يهرب من ماضيه... اعترف."

صوت خطوات لم تكن له..... التفت.

رجل؟ لا.

ظل؟ ربما.

لكن الملامح كانت مألوفة...

شعره طويل، نظراته رمادية كالسحب، وصوته...

"أنا أنت، لو لم تخف."

أراد أن يتراجع، لكنه تذكّر... لا تراجع داخل البوابات.

"لماذا أنا هنا؟" سأل "نيراف"، لأول مرة منذ بدأت الرحلة.

الظل ابتسم:

"لأنك كذبت... وصدّقت كذبتك."

الغرفة اشتعلت من حوله.... الصور تحوّلت إلى نيران، كل مشهد ماضٍ كان جمرًا في صدره.

"ما المطلوب؟"

سأل بصوت مرتجف، نصفه يائس، ونصفه لا يزال يبحث.

الجواب لم يأتِ بالكلمات، بل بالمرايا.... ثلاث مرايا خرجت من الأرض، واحدة تمثّل ما كان يمكن أن يكونه، واحدة تمثّل ما صار عليه، وواحدة لا تُظهر شيئًا، لكنها ترتجف كأنها تخاف أن تُريه ما سيصبح عليه.

"اختر واحدة، وواجه." صمتٌ، ثم خطا خطوة نحو المجهول.

ميراث الصوت

لم يكن الصوت وحده ما يُسمع... بل ظلٌ يتشكل من الفراغ، يتردد صداه في الجدران وكأنه من زمن سابق عليه.

وقف "نيراف" في مواجهة بوابة لم تُفتح، بل تنفّست.

امتدت أمامه لوحة حجرية، لا نقوش عليها إلا أثر يد محترقة، يحيط بها هدوء مرعب لا يشبه الصمت... بل يشبه الإنصات.

..."اختر..."

الصوت جاء من داخله هذه المرة، لا الكيان، لا الجدران، بل من قلبه هو، وكأن ما عاشه كله، وكل من ماتوا قبله، يتحدثون الآن عبره.

كان أمامه خياران.... أن يتبع صدى النغمة حتى نهايتها، أو أن يكسرها.

وفجأة... ارتجّت الأرض تحت قدميه، وظهر خلف البوابة ظلٌ آخر. لم يكن يشبهه، ولا يشبه أي كيان رآه من قبل.

كان شبحًا من نغمة سابقة قديمًا... ربما أحد من فشل في الاختبار.

اقترب منه، همس دون أن يفتح فمه:

"لا تبحث عن الصوت... هو من يبحث عنك."

ارتدّت الجدران ضوءًا باهتًا كأنها تسترجع ذاكرة ما، وامتلأت الغرفة بلحن خافت يشبه بكاء الريح.

رفع "نيراف" يده... ليلمس البوابة.

فرأى "أريتا" تجلس في عمق المرآة، لا ينعكس شيء منها سوى عينيها. كانت كأنها تشعر باهتزاز طفيف في النغمة، وكأن أحدهم لمس الخيط المقدس.

التفتت بحركة، كمن يشعر بأحد يراها.....

"من؟"

همست وهي تمسك بكتاب لم يُفتح منذ زمن النسيان.

صفحات الكتاب قلبت نفسها، و"أريتا" رأت اسم "نيراف" يُحرق ثم يُكتب من جديد...

لكن شيئًا ما تغير.

الكيان الذي تحرسه بدأ يتحرك. المملكة تهتز من الداخل.

نهضت، وبدأت خطواتها نحو الممر الحجري المؤدي إلى القاعة الكبرى.

كانت هناك أصوات ليست بشرية.... ليست كاملة....

مزيج من نغمة قديمة... واحتجاج قادم.

حين يعلو الصمت

لم تكن التغيّرات تحدث بضجيج في مملكة اعتادت أن تُحكم بالأنغام، كان الصمت أول الخونة.

لم تلاحظ الحارسة الأولى... تلك العجوز التي لطالما أمسكت بمفتاح الباب الثالث، أنها لم تعد تسمع صوت خطاها على الأرض.

الجنود في أطراف الحدود الغربية توقفوا عن استلام رسائل الريح، وحتى مياه النبع المقدّس في ساحة المرايا... لم تعد تعكس السماء.

في يوم بدا عادياً، فتحت "مليتا" باب أرشيف النغمة، لتجد الأوراق وقد بدأت في التهشم... كأن الحروف كانت تهرب من كلماتها.

كان "نيراف" في الجناح الشرقي من القصر، محاطاً بأشجار لم يرها من قبل. لم تكن تنمو من الأرض بل من الذاكرة. كل شجرة تمثل موقفًا قديمًا، وكل غصن يحمل اسماً نسيه من زمان.

بدأ يتلمّس أوراقًا ناعمة، فإذا بها تحترق ما إن يتذكرها.

"أريتا كانت هنا"..... همس الصوت في أعماقه.

لكنه لم يرها. رأى فقط ظلاً لخطواتها، محفوراً في التراب، يتجه نحو الشرفة.

هناك، كان المنظر مختلفًا. من بعيد، تهاوى أحد الأبراج القديمة للمملكة..... برج الحُكّام السبعة، دون أن يُمسّه أحد، كأن هناك شيئًا من الداخل تم كسره.

في قاعة المرآة الكبرى، كانت "أريتا" تحاول أن توصل صوتها للنغمة.

جلست على العرش القديم، ذاك الذي لم تجرؤ أن تقترب منه منذ عهد الملك الراحل.... مرآة واحدة بقيت لم تتصدّع، لكنها لم تعكس وجهها.

بل أظهرت صورة فتاة صغيرة... كانت هي نفسها، في أول مرة دخلت القصر.

وهمس الصوت داخلها: "عندما تتوقف المرايا عن قول الحقيقة... تبدأ المملكة بالكذب على نفسها."

وفي أطراف "إيلانور"، بدأ الناس يشعرون بما لم يفهموه.

كان الأطفال يولدون بلا ميلاد نغمي، والرعاة يسمعون طبولاً خفية في الأرض.

حتى "سيد الطبول"، الرجل الصامت منذ خمسين عامًا،

صرخ لأول مرة قائلاً: "النغمة تتشقق. والبوابات تتنازع."

الوصيّ الذي نسي وظيفته

لم يكن أحد يذكر اسمه الحقيقي في سجلات القصر، ظلّ مسجَّلًا فقط بلقبٍ عتيق: "الوصيّ الثالث على البوّابة الصامتة."

بوّابة لا تفتح... ولا يُفترض أن تفتح. ولم يكن يُسأل عن دوره، ولم يُعِد أحدٌ النظر في مفاتيحه القديمة.

لكنه كان هناك، دائمًا. شخصية باهتة في الخلفية، يحمل درعًا لا يلمع، ويقف خلف باب بلا زائرين. وكان يراقب، يتنصّت، ويحفظ كل التفاصيل... دون أن يظن أحد أنه يحفظها.

في تلك الليلة، بعد اهتزاز النغمة، وبعد أن تخلخل الضوء في أروقة المملكة، استيقظت البوابة. ليس بصوت... بل برجفة.

كأن صدى قديم كان نائمًا خلف جدار سميك من الصمت، وبدأ يتململ.

ألقى الوصيّ نظرة على الدرع المعلّق، كان مكسور الحافة منذ عشرين عامًا. ومع ذلك، لم يُرمّم، كما لم يُنسَ.

خطا خطوة إلى الأمام.

وفي أحد الممرات الخلفية، بينما كان "نيراف" يسير متأملاً ما خلّفته النغمة على الجدران، سمع همهمة غريبة، ليست من هذا الزمان.

شيءٌ ما تغيّر... ليس فقط في الجدران، بل في الذكرى التي يسكنها المكان.

لم يكن متأكدًا، لكن ما رآه لم يكن من الحاضر. كان انعكاسًا لرجل بملامح ضائعة، يحمل سيفًا صدئًا ونظرة من يعرف الحقيقة... لكنه نسيها.

الوصيّ الذي نسي وظيفته. لم يكن أحد يذكر اسمه الحقيقي.

اقترب "نيراف" ببطء من الانعكاس. لم يكن يعلم هل يرى ماضيه... أم ماضي أحدٍ آخر، يلبس وجهه.

قال الصوت، وكأنه خرج من قاع المرآة:

"أخيرًا... وصل حامل الصدى."

تجمّد "نيراف". لم يكن أحد قد دعاه بهذا اللقب من قبل....

"من أنت؟" ... سأل، محاولًا إخفاء ارتجاف صوته.

ردّ الصوت، بنبرة لا تُشبه البشر:

"أنا من وقف حيث لا يجب أن يُرى، ومن سمع ما لا يُقال. كنتُ وصيًا على صمتٍ لا يصمت."

تقدّم "نيراف" خطوة أخرى. الضوء من النغمة لا يزال ينبض في عروقه، لكنه شعر ببرودة لم يعهدها.

"ما هي هذه البوابة؟ ولماذا تستيقظ الآن؟"

همهم الصوت، كمن يوقظ ذاكرة قديمة:

"لأن النغمة تميل. ولأن من لا يجب أن يملكها... يقترب."

كان الجدار خلف المرآة يبدأ بالتشقق. وخُطى تُسمع في أماكن لا أحد فيها.

"هل تتحدّث عن "أريتا"؟ أم عن "راشا؟"

صمت... ثم جاء الردّ: "كلاهما يملكان الشوق، لكن أحدهما يملكه السقوط."

"نيراف" لم يفهم، أو لعلّه فهم أكثر ممّا يريد..

"أنتَ كنتَ وصيًا... فماذا حميت؟"

فانشق الجدار تمامًا، وظهر خلفه درجٌ حجري، ينزل في ظلامٍ كأن لا نهاية له.

وفي صدره، كُتبت كلمات بلغة لا تُقرأ، لكن قلب "نيراف" فهمها:

"الحقيقة لا تُحمى... بل تُنسى."

قال الوصيّ:

"ادخل... إن كنتَ مستعدًا لأن ترى نفسك كما لا تريد."

ثم اختفى.

ترك "نيراف" واقفًا أمام الدرج... وبين النغمة التي في دمه، والظلمة التي في الأمام، كان عليه أن يختار أيّهما يثق به أكثر.

لم يتردد "نيراف". مدّ قدمه الأولى إلى الدرج، وكان ملمسه كجلدٍ بارد، كأن الأحجار نفسها تراقبه.

مع كل خطوة، كانت الأصوات من حوله تتغيّر... لم يعد يسمع صوت قلبه، بل صدىً غريبًا... كأن أنفاسه تُعيد له كلمات لم يقلها يومًا.

كان النور يتناقص كلما نزل، لكنّ النغمة في داخله كانت تُضيء بضوءٍ خافت، يزداد كلما اقترب من شيءٍ لا يعرفه، لكنه يشعر به... يشعر به كما يشعر الإنسان بالخطر حين يُحدّق أحد في ظهره دون أن يراه.

وفجأةً.... انتهت الدرجات.

وجد نفسه في قاعة دائرية، محاطة بتماثيل غريبة... كل تمثال يرتدي وشاحًا يُشبه جزءًا من حياته.

واحد يحمل قناعًا يشبه والده، وآخر يلبس عباءة مرشده القديم، وثالثة تشبه عين "أريتا" حين كانت تنظر إليه بصمت.

اقترب من أحد التماثيل، ومدّ يده ليلمس الجبهة... فاهتزّ التمثال وفتح عينيه.

"أنتَ..." قال التمثال بصوتٍ خافت.

"لستُ أنا، بل أنت الذي تنسخني."

حافة الصوت

لم تكن قرية "أدريما" أكثر من مجرد بضع بيوت طينية، وعلامة خشبية نُقشت عليها كلمات باهتة: "هنا تبدأ مملكة إيلانور... إن كنتَ تنوي الرجوع، فارجع الآن."

لكن في ذلك الفجر الغريب، لم يُشاهد أحد الشمس تشرق. الأفق كان رماديًا، والضباب يزحف كما لو أن المملكة نفسها تبخّرت وبقيت أشباحها تتجوّل.

خرج الشيخ "نايم" من كوخه، وهو يُمسك بعصاه التي اعتادت أن تقرأ الرياح. كان عجوزًا لا يؤمن بالنغمة، لكنه لطالما حذر من السكون.

واليوم، لم تكن هناك أصوات. لا صياح ديك، لا صرير خشب، لا خُطى.

فجأة، انتبه لامرأة واقفة وسط الطريق، ثوبها الأسود يلامس الأرض. لم تكن من القرية، ولم تكن بشرًا تمامًا.

قالت دون أن تحرك شفتيها: "أصواتكم وصلت لما لا يجب أن يسمع... أنتم الآن على الحافة."

وقبل أن يصرخ أحد، اختفت، وبقيت في مكانها دائرة محترقة، كأن شيئًا من الماضي انفجر في الأرض.

في قلب القاعة الكبرى، كان "نيراف" يقف أمام العرش، و"النغمة" تهمس من بعيد، لا كصوت، بل كاهتزاز في العظم.

كان وحده... أو هكذا ظن.

في الظلال، تحرك كيان لم يكن له وجه.

الهواء برد فجأة، والأضواء على الجدران خفتت كأن الغرفة بدأت تنسى نفسها.

ظهر من الفراغ صوت، لا يشبه الأصوات، بل يشبه ذكرى صرخة:

"أعدت الصوت إلى من لا يملكه... فماذا ستفعل بمن كان الصوتُ سلاحه؟"

تحرك "نيراف"، لكن الأرض لم تتحرك معه. كان هناك تصدع... في الواقع نفسه، كأن القاعة لم تعد تنتمي لهذا الزمن.

وفجأة، رأى نفسه واقفًا أمام انعكاسه، لكن الانعكاس كان أقدم منه، وأشد قسوة.

كان شبيهًا به... لكنه مُحترق العينين، كأنه عاد من زمن لم يوجد قط.

وسأله: "هل تعرف من كُنت؟ أم أنك صدّقت من صرت؟"

كان "نيراف" يحدّق في انعكاسه القديم. لم يكن هذا مجرد ظل... بل نسخة ممسوخة من ماضيه، كأن كل خطأ، كل تردد، كل خذلان، وُلد من جديد على هيئة رجل.

اقترب الانعكاس، وكان صوته مليئًا بالمرارة:

"لقد أعدتَ النغمة... لكنك نسيت أن تسأل: لمن؟"

سأل نيراف، ونبرته لم تكن واثقة كعادته:

"ومن تكون أنت؟"

أجابه: "أنا أنت... لو كنت صادقًا منذ البداية."

انشقت الأرض بينهما فجأة، وتسرّب من التشققات ضوء أحمر، كأن الماضي قرر أن يُحاكم الحاضر.

أصوات مجهولة خرجت من الجدران، لا تنتمي إلى زمن أو لحن، بل كانت تشبه وجعًا مكتومًا منذ قرون.

ثم ترددت كلمات بلغة نيراف لم يعرف كيف تعلّمها:

"الصوت لا يُستعار... الصوت يُدفع ثمنه."

سقط "نيراف" على ركبتيه، والرؤية أمامه بدأت تتشظى.

رأى نفسه في صحراء، يصرخ ولا يسمع صوته.

ثم في غابة، يسمع صرخات لا يعرف مصدرها.

ثم في قاعة العرش، والمقاعد فارغة... كل الوجوه التي عرفها تحوّلت إلى أقنعة.

وفجأة... هدأ كل شيء... سكون تام.

ثم، من وسط العرش، خرج كيان جديد. لا وجه له، لكن صوته كان مألوفًا:

"وصلتَ إلى حدود الندم... الآن، إما أن تختار النغمة، أو تختارك هي."

ردّ نيراف، وصوته هذه المرة كان ثابتًا رغم الارتجاف:

"لن أختارها إن كانت ستكسرني. أنا لم أعد صدى."

ابتسم الكيان، أو لعلّ نيراف فقط تخيّل أنه ابتسم، وقال:

"ولمَ تعتقد أنها تريدك صدى؟ إنها تبحث عن من يُعيد المعنى للصوت."

ثم انطفأ الضوء فجأة.

في اللحظة التالية، كان "نيراف" واقفًا وحده في القاعة. لا صدى، لا ظل، لا كيان.

لكن شيئًا واحدًا تغيّر. كانت هناك علامة على الحائط... نفس الرمز المحترق الذي وُجد خارج قرية "أدريما"، كأن شيئًا ما بدأ يتحرك... خارج المملكة وداخلها.

حين ارتجّت الحواف

لم تكن "أدريما" قرية، بل ذاكرة مرمية عند حافة الخريطة.

تآكلت حدودها كما تتآكل أطراف الورق المهمل، تسكنها وجوه لا تُرى بوضوح، وكأن الزمن مرّ عليها بلا اكتراث.

كانت الريح تمرّ هناك، لا لتعزف، بل كأنها تكنس ما تبقى من معنى.

على عتبة أحد المنازل، جلس الشيخ "هالون"، أحد حرّاس الصوت القدامى الذين نُسوا قبل أن تبدأ الحكاية.

كان يقرأ من لوح خشبي تشقّق كجلده، بصوتٍ مرتعش لا يعلو عن همس الريح.

بجانبه، وقف فتى صغير يُدعى "رامي"، بعينين متسعتين كأنه تَعلّم أن يرى أكثر مما يُحتمل.

قال الفتى: "رأيته، شيخ هالون... كان يتحرك فوق الأرض، لكنه بلا قدمين، بلا ظلٍ، بلا صوت. فقط، كل ما حوله صار صامتًا فجأة... حتى أنا."

أطبق الشيخ على اللوح، كأن بين يديه سرًّا قديمًا أُعيد بعثه، وقال:

"هذا الصمت... ليس طبيعياً. إنه ابتلاع. هناك من يعيد تشكيل حدود المملكة دون إذنٍ من نغمتها."

في القاعة الكبرى داخل العاصمة، كان "نيراف" يعبر وحده بين أعمدة الصمت... الصدى، الذي كان يتجاوب معه دومًا، بدا كأنه متأخر هذه المرة... كأن هناك من سبقه إلى الصدى، من سكن النغمة قبله.

عينا الملك كانت ساكنتين، لكن الظلال خلفه تهتزّ كمن يتهيأ للنطق.

نيراف قال، دون أن يرفع صوته:

"النغمة تغيّرت، أو ربما العالم هو من بدأ يعكسها بطريقة أخرى."

لم يجبه الملك، بل ظهرت تموّجات خفيفة على حجاب النغمة، كأنها ارتجافات طيفٍ يشعر بالاختناق.

ثم دخلت "أريتا" بخطى غير مسموعة، لكن تأثير صوتها بدا كزفير الريح القديمة على شقوق الأرض... شموع القاعة خفَتَ نورها، والطين المندس تحت الحجارة تشقّق في صمت.

قالت: "شيءٌ ما يحدث في الأطراف... هناك قرية لم ترد على رسائلنا منذ أيام."

نيراف التفت إليها، وهمس كما لو يخاطب نفسه:

"الصوت لم يعد يرد علينا... ربما لأننا لم نعد الوحيدين الذين يسمعونه."

في تلك اللحظة، كان الشيخ "هالون" في "أدريما" يمدّ يده ليرسم دائرة على الأرض باستخدام رماد نبتة قديمة... نغمة قديمة حاول استدعاءها، لكنها لم تعمل.

الرماد ارتفع قليلاً ثم تلاشى، لا بسبب الريح... بل كأن الصوت نفسه قد أُطفئ.

عاد "نيراف" إلى الحجاب، واقترب أكثر. تموجاته لم تعد مثل الأمواج... بل مثل تنفّس مخلوق مذعور.

قال، دون أن يلتفت:

"النغمة ما عادت أداة... إنها صارت ساحة. وكلما صمت طرفٌ منها، بُعث في مكان آخر تهديد لا نعرفه."

في مكانٍ ما، على حدود "أدريما"، فتح رامي عينيه فجأة، وقال:

"الشيخ... لقد سمعني!"

قال هالون ببطء: "مَن؟"

أجاب الصبي، وصوته مرتعش: "الشخص الآخر... من داخل الصمت."

وفي القاعة، تراجع "نيراف" خطوة. لم يكن الصوت داخله... بل النغمة نفسها هي من نادته، بصوت لا يشبه أي نغمة من قبل.

ما قبل الانطفاء

لم يكن ما سمعه "نيراف" صوتًا بالمعنى المألوف، بل ارتجاجًا داخليًّا، كأن نغمة المملكة تنفست بغرابة، كأنها تئن تحت وطأة شيء لم يُسمح له بالدخول... لكنه دخل.

رفع يده نحو الحجاب، وتوقّع أن يصده كما اعتاد، لكنّ الغشاء المائي النابض تراجع لحظة، تاركًا فراغًا مفتوحًا، مثل ندبة في السماء.

ترددت أنفاس "أريتا" خلفه، كأنها استشعرت ما هو أعمق من الصوت.

قالت بصوت خافت: "القرى بدأت تصمت... وأدريما كانت أول من خُطف صداها. لكن ليست الأخيرة."

أراد أن يرد، لكن شيئًا في القاعة تحرّك من تلقاء نفسه. التماثيل التي كانت صمّاء منذ قرون... ارتجف ظلّها.

الظلال نفسها بدت كأنها تملك وجوهًا... وجوهًا لا تتبع الضوء، بل تراقب من خلفه.

نطق الملك أخيرًا، وصوته جاء عتيقًا، كأنه لم يُستخدم منذ زمن:

"أدريما لم تسقط وحدها... هناك من يعيد تشكيل التوازن."

اقتربت أريتا من منصة الصوت، وقالت بصوت شجاع متوتر:
"علينا أن نخرج من العاصمة. إن بقينا هنا فقط... سنكون كمن يحرس رمادًا."

على أطراف "أدريما"، في الظلال العالقة بين الضوء والخطر، كان الصبي "رامي" يقف وحده.
اختفى "هالون"، لم يعد هناك صوت في القرية، ولا حتى صمتٌ مألوف.
كان كل شيء يبدو ثابتًا... أكثر مما يجب.
ثم، فجأة، لم تُمهّد لها الريح، ظهر كيان طويل كأن قامته ترتفع مع كل رمشة عين.
لم يكن له وجه، بل انعكاس مشوّش لكل من ينظر إليه.
وقال، دون فمٍ:
"من منكم سمع النغمة دون أن يُستدعى؟"
"رامي" تجمّد، لم يكن يعرف كيف يرد، ولا إن كان الردّ سينقذه.
لكنّه شعر فجأة بذبذبة صغيرة تمر في أوتار روحه، كأن "نيراف" فكر فيه للحظة....
وفي القاعة، تراجع "نيراف" عن الحجاب، ثم قال:

"أحدهم... يحاول أن يقرأ المملكة مثلما نقرأ نحن النغمة."

أجابت أريتا: "بل يعيد كتابتها، سطرًا خارج مقامها."

وفي البُعد بين القريتين، ظهر أثرٌ واضح على أرضٍ لم تُمسّ منذ زمن، دائرة من الرماد، لكنها كانت مشقوقة من المنتصف، كما لو أن من رسمها لم يُكمل.

بجانبها، نقشٌ صغير....

"الصوت لم يعد وحده من يتكلم."

نهاية ذلك اليوم لم تكن كأيّ يوم. النجوم تأخرت في الظهور، والنغمة... لم تُردّد شيئًا.

لكن الجميع أحسّ بها.

حين تنشقّ النغمة

لم يكن الصباح قد اكتمل فوق "أدريما"، الضوء باهت، يشبه صدى نغمة لم تُعزف بعد. الناس في الساحة ما زالوا يحدقون في الفراغ، حيث كانت أصواتهم تعود إليهم... قبل أن تُبتلع.

وفي القاعة الكبرى، كان "نيراف" يقف وسط حراس المدى، يرمق الأبواب كما لو كانت تهمس، لا تفتح. لم يكن يعلم أي باب يجب أن يُطرق، وأيها إن فُتح... لن يُغلق بعدها أبدًا.

التفت فجأة حين سمع الصوت، لم يكن أحد من الحاضرين، كان قادمًا من الداخل، من الجدران، من النغمة ذاتها.

"لقد بُعثوا... ليس لاسترداد النغمة، بل لتغييرها."

قالها الصوت، لا ذكر له، ولا هيئة.

تبادل الحراس النظرات، و"نيراف" لم يجب، لكنه شعر بذلك الضغط الذي يعرفه، كأن الزمن ينكمش من حوله، يدفعه إلى لحظة القرار.

ثم انشقّ الصمت، حين دُفعت أبواب القاعة دفعة واحدة.

دخل رجل، عجوز، بثياب الرحّالة، ووجه كأن الرمال نقشته منذ قرون.

لم يتحدث مباشرة، بل أخرج قطعة حجرية، بحجم الكف، مرسومٌ عليها رمز قديم.... نصف دائرة داخله صدى ممزق.

قال الرجل:

"كنتُ في" قُصوى"، القرية التي لا تظهر إلا كل عشرين عامًا... واليوم لم تظهر، والمكان الذي ظهرت فيه آخر مرة... صار بلا صدى."

صمت، ثم اقترب من نيراف، وحدّق في عينيه.

"لقد بدأت نغمة جديدة تُكتب... لكنها ليست من مملكة البشر."

"أريتا"

في قلب الغابة التي لا تُرسم على الخرائط، حيث تتشابك الأغصان كأصابع حكماء قدامى، كانت "أريتا" تسير، الريح هناك ليست ريحًا... بل نغمة تتردد حولها، تخبرها بما لا تُقال به الكلمات.

وقفت عند مجرى ماء ضيق، وانحنت تغمر يديها في السيل،

فانفصلت الصورة أمامها للحظة، ورأت قرية... ليست "أدريما".

رأت وجه "نيراف"، لكن عينيه لم تكونا له. ورأت المرأة... التي لم تولد بعد.

قالت لها الريح:

"إنكِ لا تحملين النغمة فقط... بل تحملين صدًى لأرواح رفضت أن تصمت. هناك من يسمعك، ليس من البشر... بل من أولئك الذين ظلّوا بين الصوت والصمت."

رفعت "أريتا" رأسها، والوميض في عينيها أكثر ثباتًا من أي وقت مضى. لقد تذكرت شيئًا لم تكن تعلم أنها نسيته.

"لم أختر هذا... لكني لن أهرب منه."

قالتها، ثم خطت نحو الشرق، حيث الجبال الميتة، الطريق المؤدي إلى مَحرَف الصدى، حيث وُلدت النغمة أول مرة... وحيث يجب أن يُحسم الأمر.

الكيان الغامض

لم يكن للزمن شكلٌ هنا، ولا للصوت وجهٌ. في الفراغ بين النغمة وصداها، استيقظ شيء ما... شيء لم يُدعَ... لكنه كان في الانتظار منذ البداية.

"عاد الصوت... لكنه لا يعرف مَن حمله. ومَن لا يعرف حامل صوته، يضلّ الصدى... ويهلك من تبعه."

الكيان لم يكن كيانًا، كان أثرًا... رغبة انطفأت في عصر لم يذكره التاريخ، وها هي الآن تتمدد كندبة في نسيج الوجود.

رأى "نيراف"... وابتسم بغير فم.

رأى "أريتا"... وفَهم.

"ليسوا وحدهم من يسير.....أنا أيضًا... أقترب."

وبدأ الزحف... ليس إلى القاعة، ولا إلى القرية... بل إلى الجذر.

إلى أول كلمة نُطقت قبل أن تُكتب لغة.

الجذر

لم يكن الزمن مستقيماً في ذلك المكان. في قلب النغمة، حين ينصت لها من اختارته، تُكشَف أعماق لا تحمل وجوهاً، بل شواهد.

وقف الكيان، نصفه ظِلٌّ، ونصفه صدى. لا يمكن "لنيراف" أن يُحدّد ملامحه، لكنها مألوفة على نحو مزعج. كان الصوت القادم منه مشوّشًا.

كأن أحدهم يحاول الحديث عبر قرون من الصمت:

"ليس كل من حمل النغمة، نجا. وليس كل من نجا... بقي ذاته."

ابتلعت الأرض ضوء القاعة، وصارت الحوائط شَفَّافة، تُظهِر خلفها وجوهًا تراقب من بعيد. لم تكن بشرًا، بل أطيافًا لحاملي النغمة السابقين. بعضهم يشبهه، بعضهم لا. ومع كل وجه، سُمِع لحن صغير، كأن كل روح كانت مقامًا مختلفًا في السيمفونية الكبرى.

ركع "نيراف" دون أن يشعر، لا خوفًا، بل بارتباك وجودي عميق. سأل، وصوته بالكاد خرج:

"هل... كنت دومًا جزءًا من شيء؟ لم أختره..."

رد الصدى، لا الكيان:

"ما يُزرَع في الجذر لا يختار أن يكون شجرة... لكن إن أثمر، صار ظلّه وعدًا أو لعنة."

كانت البوابات تتجمع خلفه الآن.... لا كما كانت، بل متشابكة، متفرعة من جذرٍ واحد... جذرٌ حي، ينبض. وكانت جذوره تمتد داخل كل من مرّ بها.

في تلك اللحظة، لم يعد "نيراف" وحده. رأى ومضات من قرية "أدريما"، حيث الوقت يُعاد كل فجر.

ورأى "أريتا" في مرآة مكسورة، تسير في طرقاتٍ تغيّر أماكنها كلما فكرت.

ورأى بوابة لم تُفتح بعد، لكنها تنظر إليه.... البوابة الأخيرة.

وفيها، كانت النغمة... تصرخ.

صوت من لم يولد

"هذه النغمة لا تُمنح، بل تُستعاد."

تراجع "نيراف" خطوة، فاهتزّت الخيوط في الهواء لحظة واحدة، وشعر بجسده كأنه يُنتزع من زمنه.

القاعة تحوّلت إلى مشاهد متقطّعة.... ماضٍ لم يعشه، وجوهٌ لا يعرفها لكنها تبكي من خلاله.

امرأةٌ كانت تُغنّي فوق أنقاض معبد رجل يشقّ صدره ويخرج نورًا خافتًا طفلٌ ينظر إلى السماء ويقول: "أين خبأته، يا أريتا؟"

نيراف شهق:

"ما هذا؟ من أنتم؟!"

لكن المشهد لم يُجبه بالعكس... زاد وضوحًا في الزاوية، كان هناك باب لم يكن من الحجر، ولا الخشب، بل من ظلّ كثيف ينبض كالقلب اقترب منه، فتكوّنت عليه كتابة لم يتعلّمها، لكنه فهمها:

"باب من لم يُولد... لا يفتحه إلا من مات دون أن يُدفن."

ارتجف "نيراف".. هذا لم يكن اختبارًا هذه كانت استعادة كأن وجوده هنا يعيد ترتيب ما تم نسيانه عمداً ومع كل خطوة، كان يشعر أنّ هناك من يراقبه....لم يكن وحده...القاعة نفسها كانت واعية.

وفجأة لمحت عيناه ظلاً يتحرّك على الجدار طويل، لا وجه له، لكن "نيراف" شعر أنه يشبهه. بل... يكرّره.

"من أنت؟"... قالها، وصوته خرج بنغمة لم يسمعها من قبل.

الظلّ لم يجب، لكنه ابتعد نحو الباب، ومرّ من خلاله... كأنه لم يكن بابًا له، بل له وحده.

أراد "نيراف" أن يتبعه، لكن الأرض ارتجّت تحت قدميه، واهتزّت القاعة.

صوتٌ عميق اخترق الفراغ:

"اختر، يا ابن الرمل أن تعرف... أو أن تعيش."

وها هو مرة أخرى، عند مفترق... لكن هذه المرة، لم يكن السؤال عن النجاة، بل عن معنى وجوده بالكامل.

القاعة صمتت... والباب ظلّ نابضًا كقلبٍ ينتظر يداً تقرر.

عين الريح

كانت السماء فوق أطراف أراضي السكون شاحبة، كأن الضوء نفسه تردّد في المجيء، توقفت "أريتا" وسط الطريق المؤدي إلى التل القديم، تشعر بشيء لم تستطع تسميته، كأن أحدًا نطق باسمها... دون صوت.

يدها لمست خاصرتها، مكان الجرح القديم الذي لم يعد يؤلمها، لكنه صار يتوهّج كلما اهتزّت النغمة في مكانٍ ما.

"هل سمعته؟" قال صوتٌ خلفها، دون أن تحتاج للالتفات.

كان "الأثر"، كعادته، يأتي دون مقدمة، كائنٌ من بقايا الزمان، يحمل آثار ممالك لم تُذكر في الكتب.

"ليس صوتًا..."

همست أريتا "بل تمزّق."

جلس "الأثرُ" على صخرة صغيرة، ناظراً إلى الأفق حيث ارتفع غبار خفيف، بلا سبب.

"إذن بدأ..."

قالها وهو يفتح كفّه، فتكوّنت فيه ذرات متوهجة، ثم تلاشت.

سألته أريتا:

"هل هو... نيراف؟"

ابتسم الأثرُ ابتسامة شفقة:

"هو... والصوت الذي يحمله لكن ليس كل من يحمل النغمة، يعرف لمن يغنّي."

كان قلب "أريتا "يضرب بقوة، هي لم تكن تعرف تمامًا ما يحدث في القاعة التي دخلها "نيراف" لكنها كانت تشعر أن الأرض تغيّرت... أن المملكة تتنفس بطريقة غريبة، وأن النسيج الخفيّ بين البوابات بدأ يضعف.

منذ أن فتحت بوابة "الموتى الصامتين"، والخرائط تُعيد رسم حدودها دون يد... الأصوات تتكرّر... الوجوه تتبدّل.

"هناك قرية على الحافة..." قالت وهي تشير نحو الغرب.

"رأيتهم في الحلم. لا يتكلمون. كأن النغمة سُرقت منهم."

هزّ الأثرُ رأسه:

"قرية أدريما... أول من أنكر أن النغمة هبة."

صمت ثم نهض فجأة:

"استعدي يا أريتا لأن ما لم يُولد بعد، بدأ يُنبت ظله."

نظر إليها مطولاً، ثم أكمل:

"ونيراف... إما أن يكون بداية نغمة جديدة، أو صداها الأخير."

وفي مكان ما من الأرض، انفجرت ريحٌ خفيفة لم يسمعها أحد، لكن كل شيء ارتعش كأن الحقيقة تنفست.

أدريما لا تتنفس

لم تكن الرياح تهب حين وصلت "أريتا" إلى تخوم قرية "أدريما" ومع ذلك، كان الغبار يتحرك في الهواء كما لو أن أحدهم يتنفسه.

البيوت متقاربة، قديمة، لكنها ما زالت واقفة، كأنها تنتظر شيئًا لا صوت ولا حتى صدى خطواتها.

لم يكن فيها بشر... فقط عيون خلف النوافذ، ترمش ببطء، ثم تختفي.

"لم يتكلموا بعد؟"

سألها "الأثر".... الذي ظهر بجانبها مجددًا كما يفعل دائمًا.

"لا لكن أحدهم غنّى... في داخلي." أجابت أريتا.

وضعت يدها على صدرها، قرب موضع القلب، حيث شعرت بنغمةٍ ارتفعت فجأة ثم انطفأت.

"هل هم منفيّون؟" سألت، وهي تتقدم نحو منتصف القرية، حيث بئر قديم.

"بل نُفِيت النغمة منهم كل كلمة لم تُقال هنا، تحولت إلى ظل، وكل ظل صار بوّابة."

عند البئر، انحنت "أريتا "وجدت رمزًا محفورًا نغمة ممزقة، وأربع نقاط تحيطها أحد رموز الملك القديم الذي نُسي اسمه.

"هذا ختم الصمت." همست أريتا بداخلها

لكنها لم تُكمل لأن الهواء حولها تغيّر، من عمق أحد الأزقة، خرج طفل لم يتكلم، لكن عينيه كانتا تنطقان بألمٍ عمره مئة عام.

اقترب، ومد يده نحوها، وفي راحته... كانت قطعة من بلّور رمادي، تشبه شظية نغمة محطّمة.

حين لامستها أريتا، انفتحت ذاكرتها كانت تقف في نفس المكان... ولكن منذ زمن آخر، كان الملك بجوارها، صامتًا وكان "نيراف" صبيًا لا يملك صوتًا بعد.

وكانت هناك امرأة، بشَعر يشبه الليل، تنشد لقريةٍ اختارت أن تنسى... كي لا تموت انسحب المشهد، وعادت إلى الحاضر.

"أنا كنت هنا..."... قالتها أريتا، كما لو أنها تعترف.

"وكتمتِ الصوت حين طلبوه."... ردّ الأثر.

ثم أشار نحو الغرب:

"القاعة الآن تُفتح على نفسها، والملك لا يسمع بعد ونيراف... يتفتّت بين صداه."

"وماذا عني؟"... همست أريتا وهي ترتجف.

"أنتِ السؤال الذي لم يُسأل بعد." أجابها الأثر دون تردد

فجأة، دوّى في السماء صريرٌ غريب، كأن النغمة بكت ، نظرت أريتا إلى الطفل، لكنه اختفى ، ووراءها بدأت جدران البيوت ترتجف، وظهر على البئر نقش جديد.

"من يتأخر عن استعادة صوته...يُصبح مرآةً للخرس القادم."

رفعت أريتا وجهها، وعرفت الزمن لم يعد مستقيمًا والبوابات تتشابك والمملكة على شفا كسرٍ لا يمكن إصلاحه.

الملك لا يحكم الصدى

في اللحظة التي ارتعشت فيها جدران "أدريما" كان الملك جالسًا في أعماق جناحه الحجري، تحيط به مرايا لا تعكس إلا ذاته.

لكن للمرة الأولى، لم يرَ نفسه رأى صدعًا في المرآة، وفي صدره.

وقف ببطء، وهو يشعر بأن شيئًا تغيّر في الهواء، كأن المملكة نفسها توقفت لتتنصّت... ثم تنكّرت لصاحبها.

"أين الحُرّاس؟"... سأل، ولم يجبه أحد.

فتح الباب، فوجد الممر المؤدي إلى القاعة العُليا مظلمًا رغم الشُعلات، الضوء موجود، لكن لا ينعكس في طريقه، ظهرت له "سيرانا"، حارسة الأصوات المنسية، كانت واقفة كما لو أنها لم تتحرك منذ قرون.

"جاءت النغمة..."

قالت دون أن ترفع عينيها، "لكنها لم تُنادِك."... توقّف.

"أنا من وضع أول لحنٍ في حجارة هذه المملكة."

صوته كان حادًا، لكنه بدا غريبًا... كأن الحروف تنزلق من فمه دون ولاء.

ردّت بهدوء:

"وأنت من كتم آخر صوتٍ حين توسل الشعب إليه."

شعر بقشعريرة سار أبعد، حتى وصل إلى قاعة العرش لم تكن كما تركها، السقف المرتفع أصبح محاطًا بتموّجات ضوئية، وكأن النغمة تُعيد نحت المكان والكرسي... كرسيه الذهبي، كان يتحلل ببطء، تُفتّت أطرافه كأنها من رمل.

"من دخل القاعة؟!"

صرخ، كأن الصوت يمكنه أن يعيد السيطرة.

ظهر أمامه "القائم على البوابة"، شيخ مملكة الظلال، الذي لا يتكلم إلا عند الضرورة:

"من دخل... لم يُفتح له الباب، بل فتَحه... نيراف؟"

هزّ الرجل رأسه، ثم قال:

"بل من أُعيد صوته من عمق الصدى وها قد عاد... الصوت الذي لم تستطِع حبسه."

في تلك اللحظة، شعر الملك برجفة في أعماقه، لا جسده الشيء الوحيد الذي كان يخشاه طوال تلك الأعوام لم يكن انقلابًا...

بل نغمة لا تسمع له، ولا تُطربه، ولا تهاب اسمه.

"هل اقترب الانهيار؟".. سأل، ونظره معلق على العرش.

ردّ القائم:

"لا... نحن في منتصفه."

تراجع الملك خطوتين ، لم يكن هناك صوت... لكن في رأسه، كان هناك همس قديم:

"أنت لم تُخلق لتملك، بل لتنسى. والآن... جاء من تذكّر."

ولأول مرة منذ سنوات، لم يعرف ما يجب أن يقول... كان سيد المملكة، لكن الصدى لم يعد يسأله الإذن.

غُصّة النغمة

كانت السماء فوق "أدريما" تنحني قليلًا، لونها لا يزال أزرق، لكن الأزرق الذي يشبه جلد الذاكرة، حين يُغمر بالندم.

"أريتا" لم تتحرك منذ آخر همسة خرجت من جدران القرية، كل شيء حولها كان ثابتًا... لكن في داخلها، كانت الحكاية تنهار.

"كأنهم... لم يُغادروا أبدًا."

قالت للأثر، وهي تحدّق في البئر الذي ما زال ينزف صدى.

"لأنهم لم يُمنحوا النغمة، بل حُمّلوا بثقلها."

أجاب الأثر وهو يمسح على النقش الجديد.

"وكان من المفترض... أن تُسمعيهم أنتِ."

أدارت وجهها إليه، ملامحها متوترة:

"كنت أخاف أن يسمعوا... وأن يختاروا."

صمتت، ثم همست:

"أنت لا تفهم، أيها الأثر... أنا لم أكذب عليهم، بل... صمتُّ لأنني عرفت الحقيقة."

اقترب الأثر، نظر إليها بعينين لا تخشيان الزمن:

"بل صمتٌ لأنك سمعتِها أولًا... تلك النغمة الأولى، تلك التي لا تُغنّى... بل تبتلع من يغنيها."

في تلك اللحظة، ارتجّت الأرض، لا كزلزال، بل كإيقاع خافت ينبض من تحت الجلد، نظرت أريتا حولها، ولاحظت شيئًا لم يكن هناك من قبل.

كل بيت في "أدريما" أصبح له ظل أطول من جدرانه... وكأن الأشباح بدأت تقف.

"نيراف... يقترب من الباب."... همست أريتا ولكن لا تعرف كيف عرفت.

قال الأثر، بصوت أشبه بتنهيدة حجر:

"وإذا فتحه... ستعود النغمة إلى أصلها."

"وماذا يعني ذلك؟" سألت وبداخلها يتمزق

"يعني أن العالم سيُعاد رسمه... على يد من لم يولد، على صوت من لم يُغنَّ."

صمت ثقيل نزل بينهما.... ثم أكملت أريتا بخوف:

"لكن... إذا فُتحت كل الأبواب... سيعود الكيان."

هزّ الأثر رأسه:

"لم يرحل قطّ، كان نائمًا... في قصائدك، في كوابيس الملك، وفي صمت نيراف."

"هل يمكنني إيقافه؟" نظرت له كمن يريد حلا

"لا... لكن يمكنك أن تهمسي في أذنه، قبل أن يعلو صوته."

في تلك اللحظة، ارتفعت من البئر نغمة لا تشبه أي لحن، بل أشبه بتنهيدة الأرض حين تتذكّر موتاها.

"أريتا" ركعت، فسقطت دمعتها الأولى منذ زمن، انحدرت دون أن تطلبها:

"فلتعدني إليه إذًا... إلى القاعة."

"ليس بعد."..... قال الأثر، ثم أدار ظهره

"قبل أن تواجهي نيراف... عليكِ أن تتذكّري من كنتِ قبل النغمة."

أريتا التي نسيت

لم تكن "أريتا" قد بلغت السادسة عشرة حين دخلت الغرفة التي لا تُفتح إلا مرة في كل جيل، كانت تُدعى وقتها "أريتا" بنت الضوء، لأن الشمس كانت تبتسم حين تمشي، والجبال كانت تنحني حين تغني.

لكن ذلك كله تبدّل حين وقفت أمام المرآة السادسة، مرآة "المعرفة الأولى"، لا تُريك وجهك، بل تظهر لك الصوت الذي سيكون خلاصك... أو نهايتك.

لم يكن برفقتها أحد سوى شيخ المملكة آنذاك، العارف الكبير الذي قال لها قبل أن تضع يدها على سطح المرآة:

"إذا سمعتِ اسمك يُنادى من الداخل... لا تجيبي."

لم تفهم... لكنها أطاعته، مدّت كفها، ثم شعرت بدفء يشبه النور، قبل أن يتحول إلى طينٍ لزج، ثم بردٍ عميق.

ثم جاء الصوت، كان هشًّا... كمن يحاول التذكّر.

"أريتا... أريتا..."

فوجئت أن المرآة بدأت تُنقش من الداخل، لكن لم يظهر فيها انعكاس، بل ظلٌّ رماديٌّ لامرأة تشبهها، جاثية، تمسك صدرها وكأنها تختنق من صوت لا تقدر على لفظه.

تراجعت أريتا، لكنها لم تنزع يدها.

"إن أجبتِ، ستُفتح البوابة التي لا تُغلق."... قال الشيخ.

لكنها لم تجب الصوت... فقط بكت، وتلك كانت المرة الأولى التي سمعت فيها الكيان... لكنها لم تتكلم عنه أبدًا.

في تلك الليلة، قررت أن تحفظ النغمة في قلبها، أن تخرسها إن اقتضى الأمر، أن تمنع من بعدَها من أن يسمعوا...

مرت السنوات، وتلاشى الاسم القديم... وأصبحت فقط أريتا الحارسة.

لكنها الآن، بعد كل ما حدث، بعد أن سمعت "أدريما" تنهار، والملك يتوارى خلف صدى لا يملكه، بدأت تتذكّر...

"أنا التي فتحت الباب."... همست بصوت مبحوح، وقدميها تغوصان في تراب الطريق العائد.

وفجأة... جاء النداء، لكن هذه المرة، لم يكن من المرآة، بل من القاعة، من "نيراف"، من النغمة التي استعادت قوتها.

"أريتا... هل تسمعينني؟"

لم تُجبه، لكنها مشت نحو القاعة.

الذي كان يجب أن لا يُفتح

كانت القاعة أهدأ من أي وقت مضى... لكن ليس الهدوء الذي يُطمئن، بل ذلك الذي يسبق الانفجار. هدوء ثقيل، كأن الجدران تنتظر أن تنطق.

"نيراف" وقف أمام الباب الأخير، كان الباب من حجر أسود، لا يلمع، ولا ينعكس عليه شيء. لا نقوش، لا مزلاج، لا حتى قبضة تُفتح بها، لكن "نيراف" كان يسمعه.

لم يكن صوتًا صريحًا، بل شعورًا... كأن هناك من يُمسك بذاكرته من الداخل ويضغطها.

"إنه هنا..." همس دون أن يدري لمن.

كان قلبه ينبض خارج جسده، وكل خطوة نحو الباب كانت كأنها تغوص في طبقة أخرى من الزمن. ثم... سمع النداء:

"نيراف... أنت تعرف من أنا."

كان الصوت يشبه صوته، لكن أبطأ، أقدم، كأن الماضي نفسه يتحدث. مدّ يده، ولمس الباب، فلم يُفتح... بل اختفى.

ورأى ما لا يجب أن يُرى. داخل القاعة... لم يكن هناك عرش، ولا أعمدة، ولا حتى سقف. كان المكان أشبه بصندوق صوتي، يتردّد فيه كل شيء نسيه العالم.

ووسط الفراغ، كان الكيان جالسًا. لم يكن له وجه، بل أكثر من وجه... ملامح تتحول بين لحظة وأخرى. طفل، عجوز، امرأة، نيراف نفسه.

"أنت الذي أخبرتهم أن يصمتوا."... قال الكيان، دون أن يُحرّك فمه.

"والآن... جئت لتسمع؟"

"أنا لم أطلب النغمة."... أجاب نيراف، بشيء من التحدي.

"لكنك رددت صداها... وهذا يكفي."

في تلك اللحظة، دخلت "أريتا". لم يكن دخولها ضجيجًا، بل توقفًا في الزمن، كأن القاعة اعترفت بها.

"توقّف."... قالت، بعينين ملأهما الغضب والرجاء معًا.

"أريتا..." همس نيراف، لأول مرة يبدو عليه الخوف.

لكن الكيان لم يلتفت لها:

"أنتِ من صمَت، والآن تتكلمين؟ فات الأوان، أريتا."

"أنا من حفظ النغمة... وسأكون أول من يطلب منها أن تصمت."

هزّ الكيان رأسه، فاهتزت الجدران:

"لا أحد يملك النغمة... هي من تملكنا جميعًا."... ثم أشار إلى نيراف

"هو من اختير! هو الذي فَتح ما كان يجب أن يُغلق."

تقدّم "نيراف" خطوة، لكنه لم يشعر أنه يسير بقدميه... بل كأن كل خطواته السابقة كانت تقوده لهذه اللحظة، لحظة الفتح الكامل.

"لو دخلتَ، لن تخرج كما أنت."‏.. قالت أريتا، والدمعة في صوتها.

نظر نيراف إلى الباب... إلى الكيان... ثم إليها.

"أظن أنني لم أكن كما أنا... منذ اللحظة التي ضعتُ فيها أول مرة."

وفي لحظة واحدة، عبر العتبة. وما إن فعل... حتى عمّ الصوت.

صوت لا يشبه صرخة ولا أغنية... بل كل شيء بينهما.

وأغلق الباب.

صوت لم يأذن به الملك

في أعلى أبراج القصر، حيث لا يصل الضوء إلا بعدما يفقد دفئه،

وقف الملكُ أمام مرآة "الغيم الأول"، مرآة لا تعكس الوجوه، بل الأحداث التي لم يُكتب لها أن تُروى. لم يكن وحده، بل بجانبه كانت تقف "راشا" الصامتة منذ الفجر، تراقب تحركاته بنظرات لا تقول شيئًا، لكنها تعرف كل شيء.

المرآة كانت مُطفأة... حتى تلك اللحظة، ثم... اهتز سطحها، وارتسم الباب، لكن الباب الذي لا يُفتح.

ورآه يُفتح... لا بأمرٍ من ختم، ولا بمفتاح ملوك المملكة، بل بيد "نيراف". الملك لم يتحرك، لكن صدره ارتفع للمرة الأولى وكأنه استنشق ريحًا لم يعرفها من قبل.

"هو... فتحه؟"... سأل، دون أن ينظر إلى "راشا".

"نعم."... أجابت، بنبرة لا تحمل دهشة، ولا أسى، فقط الحقيقة.

"وكانت معه أريتا؟"

"دخل قبلها... وهي لم تمنعه."

سكت الملك.... ثم اقترب من المرآة، مسح بيده السطح حتى رأى اللحظة الأخيرة، انغلاق الباب، وامتداد النغمة، كأن المملكة كلها شهقت بصوت لا يسمعه سواهم.

"هذا الصوت... لم آذن به."... قال، كمن يتحدث لنفسه.

"الصوت لا ينتظر إذنًا، يا مولاي."‌.. قالت راشا، بهدوء كأنها كانت تحفظ هذا الجواب منذ سنوات.

"لم يكن هذا ترتيبي، لم يكن هكذا سينتهي النغم."... صوته تحوّل لخشونة لم تعهدها، كأن الزمن نفسه يُقاوم.

"بل هذه بدايته، لا نهايته." أجابت راشا، وهي تنظر للأرض برعب.

الملك استدار نحوها، ولأول مرة منذ أعوام، كان في عينيه شيء من الحيرة... لا الغضب.

"مَن هو نيراف، يا راشا؟ ومَن جعل منه حامل النغمة؟"

"هو السؤال الذي أجلته لسنوات، والآن... أنت من عليه أن يسمع جوابه."

ثم مدّت يدها نحو الجدار، وضغطت على نقشة قديمة، كانت مغطاة بشريط من الحرير الملكي.

انفتحت خلفها حجرة ضيقة، بداخلها صندوق واحد فقط... صندوق لم يُفتح منذ عهد الملك الأسبق.

"الصوت الذي لم تأذن به... جاء من هنا أول مرة."... قالت وهي تفتح الغطاء.

داخل الصندوق... لم تكن هناك كتب، ولا سيوف، ولا خرائط.

بل قلبٌ حجريّ، ينبض ببطء.

الملك تراجع خطوة، وشيءٌ ما في صوته بدأ يتكسر:

"لم أخلق المملكة... بل حافظت عليها، ولم أطلب النغمة... بل أخفيتها."

"لكنها لم تُخلق لتُخفى."

قالت راشا، ثم أضافت: "إنه الوقت، يا مولاي... لتسمع مثلهم."

نظر الملك إلى القلب الذي بدأ يُصدر لحنًا خافتًا، لحنًا يشبه النغمة التي سمعها من باب "نيراف"... لكنها أقدم وأقرب... إلى الخطر.

من بقي في الخارج

لم تُسمع أي صرخة، لكن أريتا شعرت أن قلب المملكة انكسر. حين انغلق الباب، لم يُغلق بصوت، بل بصدى، كأن الجدران تنفست للمرة الأولى، ثم قررت ألا تُنطق مرة أخرى.

وقفت وحدها أمام الفراغ الذي تركه "نيراف"، لم تكن هناك دموع، ولا صدمة، فقط إحساس ثقيل... بأنها تأخرت.

"لقد دخل وحده."..... همست، كمن يعترف لجدران تعرف الحقيقة قبله.

مدّت يدها إلى سطح الباب... لكنه لم يكن حجرًا بعد الآن، كان ناعمًا، شفافًا كالهواء، لكنه لا يُخترق.

"كان يجب أن أكون معه."..... قالت، وهذه المرة بصوت مسموع، كأنها تلوم نفسها أكثر من أي أحد.

"راشا" وصلت بعد لحظات، وقفت بجوارها، لا تسأل ولا تواسي.

ثم قالت بهدوء:

"هو من اختار، وأنتِ من سمحتِ."

"بل أنا من لم أوقفه."... أجابت أريتا، وهي تشعر أن الزمن يركض دونها.

كان حولهم سكون... لكن في البعيد، كانت المملكة تتحرك. في أقصى الجنوب، اشتعلت الرمال فجأة ثم هدأت.

في الشرق، تغيّرت اتجاهات الريح، وعلى حدود "أدريما" بكى طفل لم يولد بعد.

قالت راشا:

"لقد بدأت النغمة تتحدث بلغتها الخاصة."

"لكن من يسمعها الآن... قد لا يعود."... قالت أريتا، وهي تنظر مجددًا إلى الباب.

ثم صمتت لثانية، كأن شيئًا ما وصل إليها من الداخل.

كان ضعيفًا... شبه صوت... نغمة لا تكتمل... لكنها عرفت مصدره.

"نيراف...؟"... همست.

ولأول مرة منذ دخل القاعة، أحست أنه يتكلم معها، لكن ليس بكلمات.

بل بإحساس، بإرثٍ قديم كان محبوسًا طويلاً... ورجع يتحرك.

صوت لا يشبه أحد

لم يشعر نيراف أنه يمشي، ولا حتى أنه يطير. كان كأنه يُسحب من الداخل... حيث كل ذرة في جسده تتحرك وحدها، وكل ذكرى يتذكرها، تنفتح كالجرح.

لم يكن هناك أرض ولا سماء، ولا حتى ظلال. كان كل شيء ضوءًا... لكن ضوء لا يضيء، وأصواتًا... لكن أصوات لا تُسمع.

"أين أنا...؟" .... سأل نيراف، لكن صوته لم يخرج من فمه.

خرج من داخله... كأنه فكرة لا تحتاج أن تُقال.

وجاءه الرد، ليس بكلمة، بل بنغمة واحدة، أقرب إلى تنهيدة طويلة.

وفجأة، ظهر أمامه وجه، كان وجهه هو، لكن أكبر سنًا، بعينين شاحبتين، كأنهما رأتا آلاف الممالك تموت وتولد.

"أنت الذي ظننت أنك الضائع."... قال الوجه وأكمل كلماته:

"لكنك كنت أنت الباب."

"أي باب...؟".. حاول نيراف أن يسأل، لكن الكلمات كانت تنفلت منه، كأنها ليست لغته.

"الباب الذي كان يجب أن لا يُفتح."... قال وجهه القديم.

ثم فاجأه، تلاشى الوجه... وحل محله أصوات كثيرة، كلها أصوات "نيراف"، لكن من أعمار مختلفة.

صوت طفل يبكي.

صوت شاب يضحك.

صوت عجوز يلهث.

كلها تردد:

"نحن أنت... وأنت نحن.... وأنت الآن حامل النغمة."

"لا أريد حملها." .... قال نيراف، لكن الأصوات ضحكت.

"أنت حملتها يوم ناديت الصدى، يوم اخترت أن لا تصمت."

ثم تلاشت الأصوات، وبدأ المكان يتحوّل. أصبحت حوله أشكال حجرية، تشبه أطلال ممالك... كان يرى فيها.... القاعة التي دخلها، عرش الملك.... مملكة إيلانور، لكن غارقة في الماء... وجه أريتا، يصرخ... لكن دون صوت.

ومع كل صورة... كان يسمع الصوت نفسه:

"النغمة ليست هبة... النغمة دينٌ على العالم."

وهنا شعر "نيراف" بشيء بارد يلمس قلبه، لم يكن حجرًا ولا نارًا.

بل شيء يشبه الحزن القديم، ثم ترددت في كيانه نغمة قصيرة...

أقصر من أن تكون أغنية، وأطول من أن تكون صرخة.

وعرف وقتها... أنه لن يعود كما دخل.

بين ما يُرى وما لا يُرى

لم يعرف نيراف كم مرّ من الزمن، ربما دقيقة، ربما ألف عام.

كل شيء هنا لا يطيع الوقت... ولا المكان، كان واقفًا وسط ضباب شاحب، وأمامه أطلال حجرية تومض وتختفي، كأن المملكة تُبنى وتنهار في كل نفس يتنفسه.

وفجأة، خرج من بين الضباب ظلٌ بشري، لم يكن له ملامح واضحة، لكن عينيه... كانتا تشبهان عيني أريتا.

"أنت الذي فتحت الباب... هل تعرف ما فتحته؟"

ترددت النغمة القديمة في صدر نيراف، لكنه تمسك بصوته هذه المرة، وقال:

"من أنت؟"

اقترب الظل أكثر، مع كل خطوة، كانت تتفتح حوله أشكال من الماضي.... الملك جالس على عرش متهالك، "أريتا" تُلقي بقفلٍ في بئرٍ لا قرار له.

صوت صرخات لمواليد يولدون بأعين مفتوحة على أسرار لا تحتملها قلوبهم.

"أنا أول من حمل النغمة، قبل أن تُسمّى إيلانور مملكةً، قبل أن يُنحَت أول باب."

تراجع "نيراف" خطوة، لكن الأرض لم تتحرك تحته:

"لماذا أنا؟"

سأل نيراف، وصوته ينكسر ما بين خوف ورغبة في الفهم.

"لأنك الوحيد الذي لم يُخلق لينسى."..... قال الظل، ثم أكمل كلماته:

"كلهم نسيوا الحقيقة... إلا أنت."

"وأي حقيقة؟" سأله نيراف، لعل هناك إجابة.

الظل أشار إلى الأطلال من حولهما، بدأت تتحوّل أطياف الممالك إلى مشهدٍ واحد، قاعة العرش... لكن سقفها مفتوح على سماء تمطر أصواتًا لا ماء.

"الحقيقة أن النغمة ليست كنزًا... بل لعنة."

صمت قليلًا، ثم أضاف:

"حامل النغمة... يقدر أن يعيد بناء المملكة، أو أن يطلق ما تحت الأرض والسماء."

تسارعت دقات قلب "نيراف"، رأى أمامه صورًا تتلاحق...

"أريتا" تصرخ وهي تحاول إغلاق بوابة، الملك يحترق على عرشه... "أدريما" غارقة في رمال تتحرك ككائن حي، صوت لا يشبه أحد... صوت يبتلع المملكة... وينسى اسمها.

وهنا، بدأ الظل يتلاشى، لكن صوته بقي:

"اسمعها يا نيراف... ثم اختر."

ثم دَوَّت في أذن "نيراف" نغمة قصيرة... لكنها لم تشبه أي نغمة سمعها من قبل، كانت تشبه صوت من يبكي وحيدًا في الظلام.

بين الصمت والصدى

لم يكن في المملكة شيء ثابت، حتى الجدران التي بُنيت من صمت القرون، راحت تتشقق أمام عيون "أريتا".

تساقطت شظايا صغيرة من السقف المرصع، جداول من الضوء والظل راحت تلتف حول الأعمدة مثل ثعابين تبحث عن مأوى.

وفي أروقة القصر، ترددت نغمة قصيرة... ليست موسيقى، بل كأنها شهقة عالم يحتضر.

"أريتا" وقفت وسط القاعة، والملك بجوارها، كلاهما ينظر إلى الباب الذي أغلق على "نيراف".

قال الملك بصوت خافت، كأنه يخشى أن يسمعه أحد:

"أتعرفين هذا الصوت؟"

أجابت أريتا وهي تحدق في بابٍ أصبح كالماء:

"إنها النغمة... لكنها ليست كما كانت، هذه نغمة تُعلن الحساب."

تقدم الملك خطوتين، وراح يمد يده نحو الباب... لكن الباب تراجع أمامه كأن له إرادة.

"إنه حي."..... قال الملك بصوت مشوب بالذهول.

"الباب... حي."

هنا دوّى صوت مكتوم في جدران القاعة، كأنه حشرجة تنفّس شيء ضخم يستيقظ من نوم طويل، وسرت رعشة في الأرض.

وفي تلك اللحظة، سمعوا صوت بكاء طفل... قادم من خارج القاعة.

تبادل الملك وأريتا نظرة حادة.

قالت أريتا:

"هذا من أدريما..."

"كيف يعبر صوت قرية الحدود إلى قلب العرش؟"... قال الملك وقد اتسعت عيناه.

ردت أريتا، ووجهها يزداد شحوبًا:

"حين تتحرر النغمة... تنكسر كل المسافات."

هنا، تزلزلت القاعة بعنف، وسقطت إحدى الثريات العتيقة وتحطمت على الأرض، وظهر على الجدران تشققٌ جديد...

يتلوى كأنه خريطة غريبة، رسمتها يد غير بشرية.

اقتربت أريتا من الملك وهمست:

"إذا خرج ما في الداخل... لن تبقى إيلانور ولا أي شيء حولها."

الملك بدا عليه الذهول، ثم نظر إليها بحدة:

"هل تظنين... أنه ما زال يستطيع السيطرة عليها؟"

أريتا لم تجبه مباشرة، نظرت إلى الباب وكأنها ترى من خلاله، همست بصوت لا يكاد يُسمع:

"إنه يقاتل... لكنني أخشى... أن النغمة هذه المرة هي التي تختاره."

وهنا المملكة تهتز حرفيًا.... الأصوات الغريبة بدأت في الوصول لداخل القصر.

حين تصمت الممالك

لم يكن نيراف يعرف أين يقف، كل خطوة كانت تقع على شيء لا يُرى... كأنه يمشي فوق ذكرياته، لا فوق الأرض.

النور الذي يحيطه كان أخف من الضباب، لكنه كان يحرق عينيه كلما حاول التركيز.

وفجأة، عاد الظل الذي يشبهه للظهور، لكن هذه المرة، كانت ملامحه أوضح، شعر طويل مكلّل بالرماد... وعينان حمراوان، تتوهج فيهما أسرار لا تُحكى.

"قلتُ لك... إنك الباب."

قال الظل بنبرة أكثر حدة.... "والباب... إما يُفتح ليحرر المملكة... أو ليُغرقها."

قال نيراف بصوت مرتعش:

"ما الذي تريدونه مني؟"

"أن تختار."

"أختار ماذا؟"

أشار الظل حوله، حيث الأطلال تتغير إلى صور جديدة.... قاعة العرش، لكنها غارقة في دماء..... "أدريما" وقد صارت كثبان رملية تتحرك كالوحش..... "أريتا" مقيدة بسلاسل من نور أسود.

"إما أن تحرر النغمة... فتعيد بناء إيلانور، لكن بثمن لا تعرفه بعد.

أو أن تحبسها إلى الأبد... وتترك المملكة تنهار."

اقترب نيراف أكثر، حتى صار يواجه نفسه وجهًا لوجه.

ثم همس له الظل:

"أتعرف لماذا أنت بالذات؟"

هز نيراف رأسه في صمت ب "لا".

"لأنك الوحيد الذي يستطيع احتمال صوت لا يشبه أحد، صوت الكيان الذي نام منذ بدء الممالك."..... أجابه الظل وفي عينه تحدي.

شعر "نيراف" بقشعريرة تخترق عموده الفقري.

كأن النغمة أصبحت نبضًا في عروقه.

"وإن فتحتُ له الطريق...؟"

قال الظل، ونبرته تزداد ظلمة:

"لن يعود شيء كما كان..... ولا حتى أنت."

ثم انشق الضباب فجأة عن عين عملاقة، ليست عين إنسان... ولا حيوان... عين مغطاة بشقوق كالخرائط، وفي حدقتها نيران باردة.

سمع نيراف صوتًا يخرج منها:

"أنا الصوت الذي نسيه الجميع.... أنا الذي ظلّ صامتًا كي لا تموت الممالك.... لكن الصمت... له عمرٌ أيضاً."

تراجع نيراف خطوة، وهو يهمس لنفسه:

"هذا هو الكيان..."

لكن العين قالت:

"أنا أنت... لو اخترت الطريق."

حين لا يبقى مكان للصمت

كانت "أريتا" ما تزال تنظر إلى الباب الذي صار يهتز كالماء، والملك بجوارها، قبضته مشدودة على مقبض سيفه كأنه يواجه خصمًا لا يُرى.

دوّت النغمة من جديد، لكن هذه المرة حملت معها كلمات:

"أنا الصوت الذي نسيه الجميع... أنا الذي ظلّ صامتًا كي لا تموت الممالك... لكن الصمت له عمر أيضًا."

شهق الملك... تراجع خطوتين حتى كاد يسقط:

"هذه... ليست مجرد نغمة!"... صاح بصوت مرتعش.

أريتا قالت، وهي تضغط على صدغيها بكفّيها:

"هذا الكيان... خرج نصفه... إنه يحاول التسلل إلى عالمنا."

بدا أن الهواء نفسه أصبح أثقل، كأن كل ذرة فيه تحولت إلى مرآة تعكس وجوهًا كثيرة، بعضها يضحك... وبعضها يبكي.

وفي تلك اللحظة، سقط جزء من جدار القاعة، وانفتح في الحائط شِقّ واسع ينبعث منه ضوء رمادي.

ومن خلاله، سمعوا صوت بكاء... يشبه صوت رضيع، لكنه غليظ كأنه قادم من أعماق جبل.

الملك تشبث بذراع أريتا:

"هل نيراف... لا يزال حيًّا هناك؟"

أريتا أغمضت عينيها، وهمست:

"إنه يقاتل كي لا يخرج الكيان... لكن كل ثانية تمضي... تجعل الكيان أقوى."

ارتعشت يد الملك، وسألها في يأس:

"وماذا لو خرج الكيان؟"

فتحت أريتا عينيها، وكانتا تمتلئان بالدموع:

"لن يكون هناك اسمٌ اسمه إيلانور... كل ما نعرفه سيتحوّل إلى صدى... لا يُسمع إلا في ظلام العدم."

في تلك اللحظة، بدأ الضوء الرمادي يزداد لمعانًا، وانتشر تشقق آخر على الأرض، مرسومًا كأنه خريطة... لكنها خريطة لقلوب بشرية تنبض ببطء.

همست أريتا:

"كل شيء معلق على قرار واحد... قرار نيراف."

صوت لا يشبه أحد

ظل نيراف واقفًا أمام العين العملاقة، تخترق روحه نظراتها، كأنها تقرأ أفكاره المخفية منذ ولادته، سمع صوتها يرن داخله:

"اختر... إما أن أخرج... فأعيد بناء المملكة كما أشاء، أو أبقى نائمًا... وتموت إيلانور ببطء."

ازدرد ريقه، يشعر كأنه يبتلع جمرة.

"وإن خرجت... هل ستعيد بناء المملكة... أم تلتهمها؟"

جاءه الرد ببرودة قاسية:

"المملكة... ستُعاد تشكيلها لكنها لن تكون كما تتذكرونها."

في تلك اللحظة، رأى أطيافًا تتلاحق أمام عينيه. "أريتا" تُمسك بابًا يتشقق تحت يديها... "الملك" يصرخ في فراغ بلا عرش.

"أدريما" تختفي وسط رمال تتحرك مثل موج حيّ.

صوته خرج منه كأنه غريب عنه:

"وما أكون أنا... لو خرجتَ أنت؟"

"ستكون أنا... وستنسى نفسك إلى الأبد."

كان الضباب من حوله يتلألأ بنبض خافت، وكأن قلب المملكة كلها يخفق في صدره، تذكّر وجه "أريتا"، تذكّر صدى كلماتها:

"هنا تُمنح الحقيقة فقط لمن ضلّ تمامًا."

أغمض عينيه، وسمع الصوت يقترب أكثر:

"اختر..."

فتح نيراف عينيه فجأة، وقال بصوت ثابت لأول مرة منذ دخوله البعد الآخر:

"لن أسمح لك أن تخرجي ولو دفعت الثمن."

اهتز كل شيء من حوله... الأطلال تفتتت إلى ذرات ضوء، والعين العملاقة أطلقت صرخة اهتزت لها كل جدران المكان:

"أنت لا تعرف الثمن..."

لكن نيراف مد يديه إلى صدره، وأمسك شيئًا غير مرئي، ثم انتزع من داخله ومضة ذهبية... النغمة نفسها.

رفعها عاليًا فوق رأسه، وقال بصوت حاد:

"هذه النغمة... لن تكون إلا لأهل إيلانور وأهلها... أحرار في اختيار مصيرهم."

وفجأة، انفجرت النغمة في ضوء عارم، وانهار العالم من حوله كأنه حائط زجاجي تحطّم.

سقط "نيراف" على ركبتيه، لكن عينيه ظلتا مفتوحتين، آخر ما رآه قبل أن يلفّه الظلام... عين الكيان تُطفأ ببطء، والأطلال تتحوّل إلى صدى موسيقي... خافت، لكنه حيّ.

حين تغيّر الصدى

الظلام انحسر ببطء عن عيني "نيراف"، وجد نفسه راكعًا في نفس القاعة التي دخلها أول مرة... لكن شيئًا تغيّر.

لم يكن هناك ضباب ولا أطلال... بل سماء من زجاج أزرق ممتدة فوق رأسه، تنعكس فيها وجوه كثيرة... وجوه لأناس يعرفهم... وأناس لا يعرفهم.

كانت أريتا واقفة أمامه، شعرها يلمع كسطح ماء صافٍ، عيناها حادتان... لكنهما تبتسمان.

قالت بصوت يملأ القاعة:

"لقد فعلت ما لم يجرؤ عليه أحد."

نظر حوله... لم يكن الملك موجودًا، ولا صوت العرش، ولا أي أثر للقصر القديم.

"أين نحن؟"... سأل نيراف وهو ينهض.

ابتسمت أريتا، وقالت:

"في إيلانور... لكنها ليست كما كانت."

خطا "نيراف" خطوات بطيئة، لمس الجدران التي تحولت إلى نغمات صافية تتراقص عند أطراف أصابعه.

الأرض لم تعد حجرًا... بل ضوءٌ صلب يلمع تحت قدميه.

"هل أنقذت المملكة؟"... سأله نيراف، لكن هنا، تغير وجه أريتا.

وكأن ظلًا مرّ فوق عينيها.

"نعم... وأنهيتها في الوقت نفسه."

تراجع نيراف خطوتين.

"ماذا تعنين؟"

أشارت أريتا إلى السماء الزجاجية، فيها، كانت تظهر صور ممالك أخرى... غريبة... واسعة... مليئة بشعوب لم يرها من قبل.

"حين أغلقتَ الباب أمام الكيان... أطلقتَ شيئًا آخر."

أحس نيراف بقشعريرة:

"ما الذي أطلقته؟"

قالت أريتا، وهمسها يملأ المكان كله:

"أطلقت حرية الأصوات... لم تعد هناك نغمة واحدة تحكم الجميع.

بل آلاف النغمات... وكل صوت صار حاكم نفسه."

مدّت يدها نحو نيراف:

"إيلانور القديمة... كانت مملكة واحدة، يحكمها لحن واحد.

لكنك كسرت القانون، الآن، كل من يسمع الصدى... يستطيع أن يصنع مملكته."

رفع نيراف بصره إلى السماء، ورأى في الزجاج انعكاس وجهه... لكن بجانبه وجوه أخرى... وجه الملك، يبتسم في سلام... وجه أريتا، يدمع فرحًا... وجوه سكان أدريما، تضحك وسط ألوان جديدة.

"كل شيء أصبح ممكنًا الآن..."... قالت أريتا.

"لكن هل هذا يعني النهاية... أم البداية؟"... أجابها نيراف.

ابتسمت أريتا، وهمست:

"ليس هناك شيء اسمه نهاية... في ممالك تُبنى على أنفاس الأصوات."

ثم ابتعدت خطوتين... وذابت وسط الأضواء، نيراف وقف وحده.

وفي صدره، كانت النغمة ما تزال تخفق... لكنها هذه المرة ليست نغمة واحدة... بل آلاف النغمات الصغيرة، تختلط معًا لتصنع أغنية جديدة للعالم.

رفع يده نحو السماء، وقال بصوت عميق:

"ربما لا تكون هناك مملكة واحدة بعد اليوم... لكن سيكون هناك عالم... لكل من ضلّ... ثم وجد صوته."

نغمة نيراف

النهاية

فهرس

إيلانور 5
نيراف 7
بداية النداء 9
الحنين 11
الاختيار 13
الصدق 15
الخوف 17
الرمل 20
النغمة 22
صدى الملك 24
البوابة التي لا تُسمّى 27
أنفاس الرمل 30
حين نطق الرمل 32
الأصل 35

تناسخ الممالك 38
صوت العرش 40
وصايا النغمة 42
ساحة السامعين 44
من لا ظلّ له 46
عندما تغيّر الصدى 48
ظلّ من لا يُسمّى 50
المرآة الأولى 52
حين يتكلّم الصمت 54
عمياء النغمة 56
نداء المرآة 58
قبل أن يهتز الصمت 60
صدى الانقسام 63
ميراث الصوت 65
غرفة الصدى 67
الارتجاج الأول 73
بوابة الحقيقة الكبرى 78

ميراث الصوت 80
حين يعلو الصمت 82
الوصيّ الذي نسي وظيفته 84
حافة الصوت 88
حين ارتجّت الحواف 92
ما قبل الانطفاء 95
حين تنشقّ النغمة 98
"أريتا" 100
الكيان الغامض 101
الجذر 102
صوت من لم يولد 104
عين الريح 106
أدريما لا تتنفس 108
الملك لا يحكم الصدى 111
غُصّة النغمة 114
أريتا التي نسيت 117
الذي كان يجب أن لا يُفتح 119

صوت لم يأذن به الملك 122
من بقي في الخارج 125
صوت لا يشبه أحد 127
بين ما يُرى وما لا يُرى 129
بين الصمت والصدى 132
حين تصمت الممالك 135
حين لا يبقى مكان للصمت 138
صوت لا يشبه أحد 140
حين تغيّر الصدى 142